الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الدكتور مولاي الطاهر -سعيدة-

كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية

قسم : العلوم الاجتماعية

مشروع : ماستر فلسفة إسلامية .

مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر في الفلسفة الإسلامية موسومة بـ :

التوظيف السياسي للمقولات الكلامية

إشراف الدكتور :

محمد حفيان

إعداد الطالب :

جبار سليمان

السنة الجامعية : 2015/2014

قبس

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : " أيها الناس قد ولّيت أمركم و لست بخيركم . . أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، و أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق . . فان أحسنت فأعينوني و إن زُغت فقوّموني "

ابن سعد ، الطبقات ، ج 3 ص 167 .

إن المتتبع لتاريخ الإنسانية عموما سيقرأ في كل زمن نزعة التملك لدى الإنسان وسيجدها ماثلة في النفس البشرية إلا قليلا، ومع زيادة الممتلكات ربما تتحول إلى سيل جارف من الرغبات، هذا ما يحمله على اتباع كل الوسائل لتحقيق هذا الجموح، ولذلك نجد أفعال الجرم بين الناس سرقة ونهبا، سطوا وغصبا...

وإذا تحول الإنسان من ملك الأشياء إلى سياسة الأشخاص، حينها لابد له من وسيلة أخرى غير النهب والسطو، ليست وسيلة مادية بقدر ما هي أفكار تتعلق بالإدراك والخيال. تتعلق بالطبيعة المشاهدة وبالغيب الميتافيزيقي.

لقد حكم بعض الملوك قديما بمسمى الطبيعة فأدركوا بعض ظواهرها ثم صورها للناس على أنها إله يرضى ويغضب، فلا بد من حيازة إرضائه بالقرابين لتجنب غضبه. ولكن هناك شخص (أو جماعة) مكلف بجمع الهدايا والعطايا وتقديمها لقوى الطبيعة!!

وتم بطريقة ما نقل هذه التصورات الذهنية المرتبطة بالطبيعة إلى معتقدات إيمانية راسخة في القلوب، فكانت" ثيرا" و"أثينا" و"بوسيدون" وغيرها آلهة تتحكم بالظواهر الطبيعية أو هي ذاتها، فوظفوا هذا الجانب توظيفا جيدا واستغلوا خوف الناس من هذه الظواهر، ولكي يتمكنوا في حكمهم نصبوا أنفسهم أبناء هذه الآلهة، وفي بعض المرات يعد الحاكم نصف إنسان ونصفه الآخر إله. بهذه الوسيلة عند اليونان مثلا سيذعن الناس. تحت وطأة الإيمان.

إنها فكرة الخلاص القديمة الحديثة في آن واحد، التي حكم بها رجال الكنيسة أيضا في أوروبا وأذلوا بها رقاب الناس وابتزوا أموالهم وممتلكاتهم قرونا سميت بعصور الظلام. كان هم الأوروبي البسيط حصوله فقط على صك الغفران ولو كلفه ذلك حياته وأمواله، ومن خالف معتقداتهم فإنه يتهم بالهرطقة والخروج عن التعاليم السماوية، وتحكم عليه محاكم

التفتيش بالحرق في الساحات العمومية أمام الأشهاد ليأخذوا العبرة. لقد نصب رجال الدين أنفسهم ممثلو الإله في أرضه (أو ظل الله) .

لقد تفطن االتنويريون لهذا الزعم، وعلموا أنه توظيف للدين يصب في صالح الساسة من نبلاء وإقطاعيين، فقادوا الناس إلى ثورة ضد هذا التوظيف، حملت شعار: "اشنقوا آخر الملوك بأمعاء آخر قسيس".

ونحن نتكلم عن توظيف الدين لصالح السياسة في تاريخ البشرية لا ضير من حط الرحال عند العرب في الجاهلية . فترة ما قبل الإسلام . ذلك أن قريش حكمت القبائل العربية بالزعامة الدينية أيضا، واتخذت من موسم الحج مغنما لسُراتها يدر عليهم أموالا طائلة.

وبقيت هذه الزعامة أثناء نزول الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبعده، فبنو أمية وبنو هاشم كانا كفرسي رهان بين سائر العرب وبطون قريش خاصة، فامتزج الدين وحب الرياسة في قلوب بني أمية وبقي فيهم، وهذا ما ترجمه التاريخ بعد ذلك.

والمستقرئ لتاريخ الإسلام السياسي يحصل له أن التوظيف السياسي للدين بدأ مع الحكم الأموي، وهو ما جرى عليه الحكم العباسي أيضا، فقد أسسوا لأيديولوجياتهم السياسية على أساس عقدي خالص، وتزامن ذلك مع نشوء الفرق الكلامية ووضعهم لمقولات كلامية كانت هي المطية العقدية التي حمل عليها المبتغى السياسي.

وقد اعتنى الباحثون قديما وحديثا بإثارة هذا الموضوع في مؤلفاتهم، إما مباشرة أو تعريضا، باختلاف حقولهم المعرفية، تاريخيا، وكلاميا، وسياسة شرعية.

وما يلاحظ على المؤلفات القديمة أنها أوردت هذا الموضوع رواية ليس إلا، ولم يقل أصحابها بالتوظيف صراحة ولكن ضمنوا النصوص معنى ذلك، وهذا يظهر جليا من خلال

استنطاق النصوص. في أمهات الكتب التاريخية أما ما كتب حديثا فقد أثير في ثناياه التوظيف السياسي للمقولات الكلامية.

ولم نجد من خلال مطالعتنا البسيطة أن هناك من بحث هذه المقولات الثلاثة وجمعها، وركز عليها كونها الأكثر تحميلا من بين كل المقولات الأخرى للأغراض السياسية السلطوية، والأكثر توظيف من طرف الفرق الكلامية سياسيا، خاصة القدرية الأوائل زمن الأمويين، والأواخر (المعتزلة) زمن العباسيين، وأنهم كانوا في جانب أحزابا سياسية أكثر منهم فرقا دينية.

وقد ساقنا لاختيار هذا الموضوع هدفين رئيسين:

أولاهما: رغبة منا لكشف حقيقة الاختلاف بين المسلمين وأنه كان اختلافا سياسيا، وليس كما يظن الكثير ممن يجهلون التاريخ الإسلامي أنه كان اختلافا دينيا.

وأما ثانيهما: الكشف عن زيف السيّاسيين الذين يتذرعون بالدين لتبرير ظلمهم، وتمرير مشاريعهم وأيديولوجياتهم. وجعل العقيدة مطية لأطماعهم.

ولنصل إلى هدفنا حددنا مجال البحث في المقولات الكلامية الأكثر شيوعا للإيديولوجية السياسية، الأموية والعباسية، وهي مقولات الجبر والاختيار ،وخلق القرآن. ذلك أن السلطتين المذكورتين أخذتا بها واهتمتا، بل وأسستا نظرية الملك عليها.

ونضع ابتداء هذه المقولات في دائرة الإجابة عن التساؤلات التالية:

ما هي أسباب نشأة هذه المقولات؟ كيف وظفت سياسيا؟ وما سبب هذا التوظيف؟ وهل كان هذا التوظيف لصالح السلطة الحاكمة فقط؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات مهدنا بمدخل تاريخي نؤصل فيه لبوادر الاختلاف السياسي بين المسلمين خاصة: "عليّ " و"معاوية " رضي الله عنهما، والذي كان سببا في نشوء الفرق الدينية وبالتالي ظهور المقولات الكلامية.

ثم بنينا على هذا المدخل فصلين، تناولنا في الأول منهما نشوء المقولات الكلامية، جمعنا بين مقولتي الجبر والاختيار في مبحث لتلازمهما نشأة وتوظيفا (لأنه لا يمكن أن نتكلم عن أحدهما إلا بالكلام عن الآخر). والثاني منهما كان لبحث نشوء مقولة خلق القرآن.

وأما الفصل الثاني فخصصناه للتوظيف السياسي للمقولات. فجعلنا توظيف الجبر والاختيار في مبحث أول، وتوظيف خلق القرآن في مبحث ثان.

وقدمنا لكل فصل بمقدمة تتناسب ومضمونه الذي ذكرنا. وختمنا البحث بخاتمة هي جملة استنتاجات لما تم دراسته، وإجابة عن الإشكالية المطروحة في مقدمة البحث.

وقد تم الاستناد في هذه الدراسة على أمهات المصادر الكلامية والتاريخية، ذلك أن طبيعة البحث تقتضي ذلك فهو إن صح القول:" كلامي تاريخي"، ومن المصادر الكلامية نذكر تمثيلا لا حصرا: الملل والنحل للشهرستاني، مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، والفرق بين الفرق للبغدادي، والمنية والأمل لابن المرتضى.

ومن التاريخية نذكر: البداية والنهاية لابن كثير، شذرات الذهب لابن العماد، تاريخ الملوك للطبري، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ديوان المبتدأ (تاريخ ابن خلدون) لابن خلدون، سير أعلام النبلاء للذهبي وغيرها.

وقد رجعنا إلى بعض الكتابات الحديثة التي لها علاقة بالموضوع، ولملمنا منها شذرات التوظيف وحاولنا عرض بعضها، ومناقشة الآخر، ومقارنتها بعضها ببعض. ككتاب نشأة

الفكر الفلسفي في الإسلام للنشار، وفجر الإسلام وضحى الإسلام لأحمد أمين، وكتاب المحنة جدلية الديني والسياسي لفهمي جدعان، وكتاب العقل السياسي العربي للجابري، والنزعات المادية في الفلسفة الإسلامية لحسين مروة ، وقد نظرنا مقالا كتب في ذلك لصاحبه، أحمد محمد سالم في موقع الحوار اليوم بعنوان: قضية الجبر والحرية الإنسانية.

ولأن المعتزلة هي الفرقة الكلامية البارزة في حقل المقولتين، فقد وجدنا صعوبة في العثور على مصادر في الفكر المعتزليّ، فقد أوردنا في الغالب ما قاله عنه خصومهم من الأشعرية، باستثناء ما اعتمدناه عند القاضي عبد الجبار في كتابيه طبقات المعتزلة، والمغني في أبواب التوحيد والعدل.

ونتوجه بالشكر في مقدمة هذا البحث للأساتذة الذين ساعدونا، ونخص أستاذنا المشرف على البحث الدكتور "حفيان محمد" الذي تحمل قسطا من عناء إنجازه، نصحا وتوجيها وتصحيحا.

وقد حرصنا كل الحرص على الإلمام بجوانب البحث ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، فإن أصبنا فيه فذلك تيسير وتسخير شكره لله تعالى موصول أن صيرنا إليه ولا نفرح فيه باجتهادنا، وإن كان التقصير باديا فيه فلا سبيل في هذا المقام إلا طرق باب الاعتذار وولوجه.

كان العرب قبل الإسلام بدو رحل لا يجمعهم جامع، قبائل متناثرة في صحراء شبه الجزيرة القاحلة، ليس لهم نظام سوى نظام القبيلة والكلمة فيه أولا وآخر لشيخها وزعيمها. لم يعرفوا نظاما سياسيا في الحكم إلا هذا النظام التقليدي.

ثم جاء الإسلام فانتظمت هذه القبائل داخله وانصهرت الزعامات فيه. إلا ما بقي رابضا منها في قلوب البعض. لقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم أفراد الأمة طيلة ثلاث وعشرين سنة في بوتقة الإسلام تسودهم أحكامه وتسير شؤون حياتهم تعاليمه، وأسس دولة في المدينة فاجتمعت في يده صلى الله عليه وسلم السلطة الدينية، والسلطة السياسية. وغاية هذا الاجتماع ال نهوض بأمر الإسلام ليسود الأرض ويعم الآفاق. كما يقول المستشرق الإنجليزي مارغو ليوث" كان قد أسس دولة وأعطى القبائل نقطة تجمع في الدين المشترك"[1]

فكان أن تربص بها أعداؤها من داخلها وخارجها. فبدت محنها وبدأت فتنها وهي لا تزال فتية تدرج على ميراث النبوة، فكانت أولى محن المسلمين آنذاك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال في ذلك شاعرهم*

لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة عشية علوه الثرى لا يوسد

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

كان لوفاة رسول الله الأثر البالغ على حياة الناس في المدينة المنورة، كما في غيره من المدائن، على المستوى النفسي والاجتماعي والديني، وإذا ذكرنا هذه الجوانب فلا نغفل الجانب السياسي الذي أحدث أصول الانقسام وفصول التفرقة في صفوف الصحابة.

---

[1]_ D.s. Margoliouth, Mohammed and the Rise of islam, New York and London. the knicker bocker press, Third édition:2003,p71.

* الشاعر:حسان بن ثابت رضي الله عنه، من قصيدة طويلة قالها في رثاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد طرح السؤال يومها والناس في هرج ومرج، من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أي الناس أجدر بسياسة أمور المسلمين؟ أمن أنصار الرسول صلى الله عليه وسلم أهل المدينة وسكانها، أم من المهاجرين رفقة رسول الله الذين أتوا من مكة؟ أو من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أسئلة طرحت بقوة تحت سقيفة بني ساعده (11هـ)*والجثمان الطاهر لم يوارى التراب بعد.

مكمن الاختلاف هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعين خليفة للمسلمين لا من المهاجرين ولا من الأنصار، لا من الأقربين ولا من الأبعدين، يقول أحمد أمين في ذلك:"لكنه لم يعين من يخلفه، ولم يبين كيف يكون اختياره، فواجه المسلمون أشق مسألة وأخطرها، على طريق سيرهم فيها كان يتوقف نجاحهم في الحياة السياسية أو فشلهم."[1]

إن عنصر المفاجأة لعب دورا كبيرا في هذه الأثناء، وليس للصحابة رضي الله عنهم نضج سياسي يمكنهم من كيفية اختيار الخليفة، ولا معايير يبنون على ضوئها اختيارهم.لذلك ستكون آراء فحسب. والرأي اجتهاد أول الأمر وآخره.

فاختيار الأنصار كان سعد ابن عبادة، وأبو بكر أرادها في المهاجرة وخص منهم أبا عبيدة بل حدد قانونا:" الأمراء من المهاجرين والوزراء من الأنصار ". وكان فيصل الخلاف في

---

*اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعده ليبايعوا سعد ابن عبادة، فبلغ ذلك أبا بكر، فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فقال: ما هذا؟ فقالوا: منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: منا الأمراء ومنكم الوزراء، ثم قال أبو بكر: إني رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر وأبا عبيدة، إن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه قوم فقالوا: ابعث معنا أمينا"فقال: **{ لأبعثن معكم أمينا حق أمين}** فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح"رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه =ابن حجر العسقلاني، (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ،ج7،دمشق ،مكتبة دار الفيحاء ،ط1: 1418هـ . 1997م ، ص 118.أيضا:الطبري، (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري)، **تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك**،ج3، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،مصر، دار المعارف،ط2،(د، ت) ، ص ص: 201.202.

[1] ـأحمد أمين، **فجر الإسلام**، القاهرة، مدينة نصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط 2:2012م.ص 283.

ذلك رأي عمر وهو: أن يقدم للخلافة من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة(يعني تقديم أبي بكر في مرض موت رسول الله) . " فقال: أيكم تطيب نفسه أن يخلف قدمين قدمهما النبي صلى الله عليه وسلم، فبايعه عمر وبايعه الناس"[1].

وربما يشكك البعض فيقول: إن أبا بكر كان طامعا في الخلافة، والدليل قبوله مبايعة الناس له.نقول: أن أبا بكر إنما قبل الخلافة خشية أن تودي فتنة انقسام الناس، إلى فتنة أكبر منها وهي الردة عن الدين، يقول أبو بكر *:" فبايعوني لذلك وقبلتها منهم، وتخوفت أن تكون فتنة بعدها ردة."[2]، فالسياسي الحكيم هو الذي يرأب الصدع في بداياته، وهذه كانت بداية الصدع السياسي بين الصحابة الذين ربّاهم الرسول صلى الله عليه وسلم على الوحدة وعدم الاختلاف والفرقة.

ولا نرى هنا قبول أبي بكر البيعة هو الذي درأ الفتنة فقط، ولكن مبادرة عمر السياسية حينما رأى انقسام الناس سارع فمد يده وبايع أبا بكر، يقول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه:"فلا يغرن امرأ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، فقد كانت كذلك غير أن الله وقى شرها..ارتفعت الأصوات وكثر اللغط، فلما أشفقت الاختلاف، قلت لأبي بكر أبسط يدك أبايعك. فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار.".[3]

---

[1]. الطبري، تاريخ الملوك، ج3، مصدر سابق، ص202.

*رواية عن رافع الطائي رفيق أبي بكر الصديق في غزوة ذات السلاسل، قال:".. وسألته عما قيل في بيعتهم، فقال وهو يحدثه عما تقاولت به الأنصار، وما كلمهم به، وما كلم به عمر بن الخطاب الأنصار، وما ذكرهم به من إمامتي إياهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه، فبايعوني لذلك وقبلتها منهم، وتخوفت أن تكون فتنة بعدها ردة."

[2]– ابن كثير، (عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير)،**البداية والنهاية**، ج8، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الجيزة، مصر، دار هجر، ط1 ،1420هـ . 1999م، ص 88.

[3] . الطبري، تاريخ الملوك، ج3، مصدر سابق، ص ص:205،206.

يُسأل هنا سؤال منطقي: هل رضي كل من في السقيفة بأبي بكر خليفة؟، هل بايعته الأغلبية، وبرضاها؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج منا في البداية وضوحا للنفوس، ولكن حديث النفس من الخبايا التي قلما تطفوا على السطح،لقد بقي شيء يعتمل في نفوس الناس يوم السقيفة، وقد طفا ذلك عند بعض الأنصار وعبروا عن ذلك بلسان المقال، وبينوا أن هواهم مع علي ابن أبي طالب لا مع أبي بكر رضي الله عنهما، ويؤيد ذلك رواية الطبري إذ يقول:".. فبايعه عمر وبايعه الناس، فقالت الأنصار . أو بعض الأنصار لا نبايع إلا عليا"[1]

ما نستنتجه من حادثة السقيفة:

أنه من الصعب جدا في السياسة والحكم حصول الرضا من طرف الجميع على الخليفة. حتى وإن كان بمواصفات أبي بكر الصديق . بمعنى أنه لا وجود لأغلبية أصوات (مائة بالمائة). ويدل أيضا على أن ما وقع من اختيار هو اجتهاد بشر والاجتهاد يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب، وأن هذا الانقسام الذي حدث بين الصحابة كان انقساما سياسيا ولم يكن انقساما دينيا، لأن الذي كانوا على يقين منه يومها، هو أن الاختلاف يكون في المتغير وليس في الأصول الثابتة، والسياسة تتغير بتغير واقع الناس.

والأمر الأخير الواضح أيضا لنا هو أنهم قعدوا لقاعدة **رجل الدين هو رجل السياسة** ،أو ما يعرف بالجمع بين السلطتين في شخص واحد. يعني الأتقى هو الأصلح في السياسة، ودلالته تقديم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي بكرمن حاصل تعبيره: "**رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضه لدنيانا**".فمعيار صلاح الحاكم وعدله، هو صلاح دينه.

ما حدث في سقيفة بني ساعده هو بداية التقعيد للعملية السياسية، أو لنظام سياسي، جديد على العرب عموما، وعلى الصحابة خصوصا، ليس نظام الزعامة القبلي الذي يعتمد على أساس المال والشجاعة، ولكنه نظام جعل السلطة والحكم في يد الرجل الصالح، وقيام ذلك على أساس ديني قوامه التكليف لا التشريف.

---

[1]. الطبري، المصدر السابق، ص202.

لم يستوردوا نظاما سياسيا من الفرس أو الروم،أو الحبشة التي زارها بعضهم وعاش في كنف ملكها أياما، ولكن كان من إنشائهم. نظام بسيط ولكن سيتطور بمرور الزمن في حياة الصحابة.وسينضج لاحقا. حينما يختلط بثقافة الآخر من غير المسلمين.

موقف آخر يستدعي منا في هذا المقام الإشارة إليه لا الوقوف عنده، هو موقف آل هاشم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته من خلافة أبي بكر رضي الله عنه فتروي بعض المصادر أنهم لم يبايعوه حتى مرت ستة أشهر*.

واجتمعت كلمة المسلمين ردحا من الزمن في خلافة أبي بكر ،" وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال.ومات مسموما (الاثنين 22 جمادى الثانية 13هـ)، سمته اليهود في أرزة أكلها، وقد وافى الثلاثة وستون سنة"[1].

وإذا توقفنا سياسيا عند الطريقة التي قضى بها أبو بكر رضي الله عنه استنتجنا أن اليهود كانوا يتربصون بالحكم منذ فجر الإسلام، فطريقة التسميم،قد مارسوها من قبل، ذلك حينما سموا رسول الله في ذراع شاة في بني نظير، أرادوا في بداية عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم السياسي في المدينة وهو يكون الدولة، أن لا يكون للإسلام وجود في المدينة، بل في جزيرة العرب أصلا، لذل نقضوا معاهدات السلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقاموا تحالفات (خيانات) مع المشركين،وهذا معروف في تاريخ بني قريظة مثلا. أما أبو بكر فكانت مرحلته هي إثبات وجود الدولة وصناعة هيبتها لدي الأمم، وهذا هو هدف تجهيزه

---

*وأما آل "هاشم" فكان لهم موقف من أبي بكر، سأل رجل الزهري: أفلم يبايعه علي ستة أشهر؟ قال: لا، ولا أحد من بني هاشم، حتى بايعه علي .. ضرع إلى مصالحة أبي بكر، فأرسل إلى أبي بكر .. فانطلق أبو بكر، فدخل على علي، وقد جمع بني هاشم عنده، فقام علي .. فقال: إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك .. ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا، فاستبددتم به علينا، ثم ذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم و حقهم .. فلم يزل يكرر ذلك حتى بكى أبو بكر...ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه."= الطبري، المصدر سابق، ص419.

[1]. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أحد عشر جيشا وبعثها إلى الآفاق بما في ذلك الجيش الذي جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه، ضد الروم.

هذه نظرة مقتضبة عن فترة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي انتهت بتأسيس نظام **شوري** اختار من خلاله رؤوس الصحابة الخليفة، ثم أصدر أبو بكر بناء على هذه الشورى كتابا عين فيه عمر ابن الخطاب خليفة، ثم قرئ الكتاب على الناس، فبايعوه، يقول السيوطي:" بعد أن **استشار**. يقصد أبو بكر . كبار الصحابة، عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، وأسيد بن حضير وغيرهم رضي الله عنهم، وكتب الكتاب عثمان ابن عفان رضي الله عنه"[1]

وفي فترة حكم عمر. التي دامت أكثر من عشر سنوات عزّ الإسلام، واتسعت دائرته،وبركاته،لكن في ختام خلافته ستوجه للمسلمين ضربة قاصمة في حياتهم السياسية،حاكتها خيوط المؤامرات الخارجية، التي دبرت قديما اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحاكم . ثم أبو بكر الصديق . خليفته . ، ستطال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ولكن هذه المرة بأيد مجوسية، تفاجأ المسلمون هذه المرة أيضا، وأعيد تكرار مسألة: **من هو الخليفة ؟**

منعرج خطير آخر وقفه المسلمون في حياتهم السياسية التي لم يظهر بنيانها، وقاعدتها غضة طرية، والعملية السياسة لا تزال تدرج في مهدها. خطورة هذا المنعرج في الفرق بين أبي بكر وعمر، فأبو بكر استشار في حياته الصحابة، وعين قبل موته الخليفة، وأما عمر

---

[1]. السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي)، **تاريخ الخلفاء**، لبنان، بيروت، دار ابن حزم، ط1: 1424هـ 2003م، ص67.أيضا: . الذهبي، (شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي)، **سير أعلام النبلاء**، ج1، رتبه وعني به حسان عبد المنان، لبنان، بيت الأفكار الدولية، (د. ط)،2004م، ص 331.

وهو على شفى الموت ليس لديه وقت للاستشارة، بل لم يرد تعيين خليفته.رغم إصرار بعض الصحابة بقولهم :(أوص يا أمير المؤمنين..واستخلف..)، الظاهر أن عمر بن الخطاب الذي تحمل مسؤولية الخلافة حيا،لا يريد أن يحملها ميتا، القضية الكبرى عنده التي منعته من الاستخلاف هو الضمان، **ما الضامن أن من يعينه لا يجور على المسلمين من بعده؟** إن الخطورة تكمن في الفراغ الذي سيخلفه عمر، أزمة سياسية للبلاد والعباد، فالمأزق الفعلي هو حينما يترك الناس دون حاكم، ولو يوما واحدا.

ولكن يظهر لنا أن عمر ابن الخطاب كان يفكر في من ينصبه بعده، بطريقة أخرى وبمنهج آخر، لقد ترك للمسلمين طريقة سياسية جديدة في اختيار الحاكم، تأخذ فيها الديمقراطية حيزا أوسع من ذي قبل، طريقة لا يوجد فيها ضغط من سلطة الخليفة، لأنه غير موجود، طريقة للتعبير والتصويت بكل حرية، **شورى * بحضور الرقيب** . ابن عمر . الذي ليس له من الأمر شيء .سوى مراقبة التصويت.

يقول ابن العماد:"لما طعنه . أي عمر . أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة، في صلاة الصبح جعل الأمر **شورى** بين من بقي من العشرة.[1].

---

*يروي البخاري قال:" فقالوا أوص يا أمير المؤمنين، استخلف. قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر .. : فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء.. فلما فرغ من دفنه، اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي. فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف.فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه؟ فأسكت الشيخان.."=ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، مصدر سابق، ص ص:79.78.

[1]. ابن العماد، (شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، ج1، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، دمشق ، دار ابن كثير، ط:1، 1406هـ . 1986م، ص177.

ويروى أن نتيجة هذا **المجلس الشوري المصغر** آلت إلى تعادل في الأصوات بين علي وعثمان رضي الله عنهما، وقد وضع عمر قانونا قبل موته أن لا يخرج النفر الستة من مجلسهم إلا بخليفة واحد فقط. وإن **ادعاها الثاني ونازع فيها بعد الاختيار، يقتل** . وهذا القانون يقطع رأس الفتنة إن هي أطلت على المسلمين.

وأسندت الخلافة لعثمان رضي الله عنه، بعد موق ف جريء آخر يحسب هذه المرة لعبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه في حسمه أمر التعادل.*

" وبويع عثمان بن عفان بعد ثلاث ليال من دفن عمر بن الخطاب."[1]

" غير أن أقاربه . أي عثمان . من بني أمية قد ركبوا نهابر فركبته وجاروا فجير عليه..وأخذوا عليه أحداثا منها رده الحكم بن أمية إلى المدينة بعد أن طرده منها رسول الله، ومنها نفيه أبا ذر، وتزويجه ابنته مروان بن الحكم، وكان كاتب السر لابن عمه عثمان،وتسليمه خمس غنائم أفريقية له، ومنها إيواؤه عبد الله بن أبي سرح ،بعد أن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه،وتوليته عبد الله بن أبي عامر البصرة"[2]

ولا بد أن نوضح هنا علاقة النسب التي تربط بين الذين ذكرهم الشهرستاني وعثمان بن عفان رضي الله عنه، ليس قدحا في قراراته ولكن لمعرفة سبب نقمة الناس عليه رضي الله عنه، فالحكم بن أمية هو "عم "عثمان، وأسلم يوم الفتح، ونفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

---

* قال عبد الرحمن: " أ فتجعلونه إلي والله علي أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم. فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعيّن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك. فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه"= ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، مصدر سابق، ص ص:78.79

1. السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص 124.

2. الشهرستاني، (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني)، **الملل والنحل**، ج1،صححه أحمد فهمي محمد، لبنان، بيروت،دار الكتب العلمية، ط2: 1413هـ 1992م، ص ص: 14. 15.

اليمن. فمروان يكون ابنه وهو "صهر"لعثمان وصاحب سر الدولة. وعبد الله بن أبي السّرح هو "أخو" عثمان من الرضاعة، وعبد الله بن أبي عامر هو "ابن خال" عثمان رضي الله عنه.

إن تولية هؤلاء مع ما لهم من ماض . في سيرهم الذاتية . يعلمه الناس، وحاضر يرونه، وجعلهم في مناصب صنع القرار ،سيفتح على الخليفة بابا له ما بعده، يقول الذهبي:" عزل عثمان سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أمية الأموي، "أخو" عثمان لأمه..وهذا مما نقموا على عثمان..ذلك أن الوليد صلى بالناس الفجر أربعا وهو سكران، ثم التفت وقال أزيدكم.وعزل عثمان عمرا بن العاص عن مصر واستعمل عبد الله بن أبي سرح..ويوم قسم ما أفاء الله على المسلمين من فتح إفريقية، أخذ بن أبي سرح خمس الخمس بأمر عثمان، وبعث إليه بأربعة أخماسه..فأبى الناس ذلك وقالوا : اعزله عنا".[1]ونستنتج أن ما كان يحدث وسيحدث بعد ذلك، هو محاولة سيطرة من بني أمية على دواليب الحكم، استغل في التخطيط له تساهل عثمان رضي الله عنه ولينه مع أقاربه.

كانت هذه الممارسات الشرارة الأولى التي أورت نار الفتنة زمن خلافة عثمان، وما زاد إيقادها فعل عبد الله بن أبي سرح في ولايته. وظلمه لأهل مصر، بل وقتله من شكاه إلى الخليفة منهم*ونقل إلينا في ديوان المبتدأ: " أن الطعن لم يكن خاصا بوالي مصر فقط بل

---

[1]. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج1، مصدر سابق، ص ص: 372.373.

*وجاء أهل مصر يتشاكون من بن أبي سرح، فكتب إليه كتابا يتهدده فيه، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان، وقتل بعضا ممن أتوا عثمان، فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة ما صنع بن أبي سرح. فقام طلحة فكلم عثمان بكلام شديد .. فقال عثمان: اختاروا رجلا أوليه عليكم مكانه، فأشاروا عليه بمحمد بن أبي بكر فكتب عهده وولاّه . =السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص 127.

كانت مقالة الطعن فاشية عامة في ولاة الأمصار، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة في المدينة، فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه"[1].

أصغى الخليفة للأصوات الداعية للعزل، وبدأ بمصر بعدما جاءه وفد من أهلها، وعين واليا جديدا هو محمد بن أبي بكر، وبعثه مع وفد مصر.ولكن هناك شيء يحدث في الخفاء لا يعلمه الناس، والخفاء هو ستار الطامع في الحكم القريب من السلطان، فهو يحجب مؤامرته عن علم الناس وأولهم الخليفة. إن ما كنا يظنه الخليفة من أن عزل ابن أبي السرح عن منصبه في مصر يطفئ النار المتأججة في النفوس، استعمله الطرف الخفي حتى يزيد من اتساع هذه النار المتقدة لتلتهم قلوبا أخرى.

ما أفاض كأس الحنق في نفوس الكثيرين على الخليفة داخل المدينة وخارجها، حتى أنه أثار الشك في نفوس الصحابة هو كتاب الخليفة * إلى عبد الله بن أبي سرح، الذي زورته يد مروان بن الحكم.كاتب السر للخليفة، هذا الأخير الذي لم يكن على دراية بما يحاك ضده وضد المسلمين. إن ما كان يحاك هو إثارة الفوضى في الولايات الإسلامية، وإحداث ثورة من العامة على نظام الحكم الذي يمثله بنو أمية المحيطين بعثمان رضي الله عنه. وقلب هذا النظام ابتداء من المدينة المنورة عاصمة الدولة.

---

[1]. ابن خلدون، (عبد الرحمن بن خلدون)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ، ج2، مراجعة سهيل زكار، لبنان، بيروت، دار الفكر، ، 1421هـ2000م، (د، ط)، ص587

*خرج محمدا بن أبي بكر مع المصريين ومعهم عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون في أمر أهل مصر و ابن أبي سرح .. فلما كان مسيرة ثلاثة أيام، لقوا غلاما لعثمان، على جمل = له أيضا، كأنه طالب أو مطلوب ففتشوه فوجدوا معه كتابا من عثمان إلى بن أبي سرح فإذا فيه: أن يبقى مكانه، ويسجن من حضر عنده من المدينة. والكتاب مختوم بختم عثمان. فرجعوا=إلى المدينة وفزعوا فجمعوا طلحة والزبير وعليا وسعدا، ثم فضوا الكتاب بمحضر منهم، فلم يبق أحد في المدينة إلا حنق على عثمان = السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص127

إن ثمن فعل مروان سيدفعه الخليفة عثمان رضي الله عنه، يقول السيوطي:" وشكوا في أمر عثمان وسألوه أن يدفع إليهم مروان فأبى . خوفا من قتله . وكان مروان عنده في الدار"[1] ونتيجة ذلك يوردها لنا ابن الأثير قائلا:" عظم الناس عليه، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد، وليس أحد يذب عنه إلا نفر."[2]

ونرى من خلال الروايات التاريخية أن الحركة الثورية أدت إلى اتحاد جبهتين ضد عثمان بن عفان رضي الله عنه، جبهة الداخل . الناقمة عليه . بما فعله مروان بن الحكم،وجبهة الخارج . الزاحفة لعزله . بفعل ابن سبأ اليهودي*وتسارعت الأحداث وسارت خطى الثائرين إلى المدينة ورفع سقف المطلب من العزل إلى القتل، يقول ابن كثير:"واشتد الأمر حتى دخلوا بيت عثمان عنوة، وقتلوه رضي الله عنه."[3]

على ما أورد ابن الأثير يوم(الجمعة 18 ذي الحجة 35هـ) [4] .

---

[1].السيوطي، المصدر السابق، ص127.

[2]. ابن الأثير، (أبو الحسن علي ابن أبي الكرم محمد ابن محمد ابن عبد الكريم)، **الكامل في التاريخ**، ج3، إعداد إبراهيم شمس الدين، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط4: 1424هـ2003م، ص33.

*. ثم وصل أهل الأمصار ما كان من أمر مروان بن الحكم .. وزورت في ذلك كتب على لسان الصحابة بالمدينة، على لسان علي وطلحة والزبير، يدعون الناس إلى قتال عثمان، ونصر الدين، وأنه أكبر الجهاد اليوم .. يضاف إلى ذلك تأجيج نار الطعن في الولاة . والدعوة إلى العزل . الذي قام به عبد الله بن سبأ في البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان يكثر الطعن على عثمان .. وأنه أخذ الأمر بغير حق، ويحرض الناس على القيام في ذلك. فاستمال الناس في الأمصار وكاتب به بعضهم بعضا"= ابن كثير، البداية والنهاية، ج 10، مصدر سابق، ص 277.أيضا: ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج 2، مصدر سابق، ص587.

[3]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، مصدر سابق، ص290.

[4]. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، مصدر سابق، ص ص:43 . 69.

وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوما"*

ويواصل التاريخ تقليب صفحات الفتنة وفصولها التي بدأت بقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم افتراق الناس على عثمان والتعصب عليه من بعض أهل الأمصار، ونسج ذلك سرا وعلنا من قبل بعض المقربين منه، وانتهاء ذلك كله بقتله في عقر داره

في مدينة رسول الله، ليتوقف عند فصل الفتنة الكبرى، التي حدثت بين الصحابة ذاتهم رضوان الله عليهم،في موقف وقفه المسلمون في جيشين ، وانقسم الصحابة إلى خميسين كل يرى الحق في صالحه ،وحمل السلاح، وامتطيت الخيول وسارت في البطاح،ورفعت الأسياف والرماح، وثارت النفوس وأزهقت الأرواح، وكل ذلك في تاريخ الإسلام بموقعة الجمل وصفين.

يقول بن سعد:" وبويع لعلي رضي الله عنه الغد . من يوم قتل عثمان . بالخلافة بايعه طلحة والزبير وسعد ابن أبي وقاص وعمار بن ياسر وأسامة بن زيد وأبو أيوب الأنصاري..وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله وغيرهم"[1].

هذه الرواية تثبت أن الصحابة إنما سارعوا لتنصيب الخليفة مبايعة لأن الفتنة قائمة والناس في هرج ومرج ولا بد من إخمادها والسيطرة على الوضع القائم، أن مبايعة علي إنما تمت من كبار الصحابة، وربما بنو اختيارهم على نتائج أصحاب الشورى الستة. أن أمهات المؤمنين لم يبايعن وعلى رأسهم عائشة رضي الله عنها لوجودها في الحج. ووجود الزبير خارج المدينة دون أن ننسى أنه أعطى صوته لعلي وهو من الستة.ولا حجة لأحد في عدم مشروعية البيعة لأنها تمت من الغالبية.

---

*"وأما عائشة فكانت قد خرجت في هذه السنة إلى الحج .. وأما الزبير فكان خارج المدينة لما قتل عثمان .. ولما بلغ أمهات المؤمنين في أثناء الطريق أن عثمان قتل، رجعن إلى مكة فأقمن بها نحوا من أربعة أشهر"= ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، مصدر سابق، ص 321.

[1]. ابن سعد، (محمد بن سعد بن منيع الزهري)، **كتاب الطبقات الكبير** ، ج3، تحقيق علي محمد عمر، مصر، الشركة الدولية للطباعة، ط1: 1421هـ2001م، ص ص: 30.29.

والأمر الذي ينبغي ألّا يغفل عنه بموازاة البيعة في المدينة هو انتفاضة أهل الشام ضد علي، ووالِيها يومئذ معاوية بن أبي سفيان ولم يدخلوا في البيعة وطالبوا بالقصاص من قاتلي عثمان وكان هذا بداية الخلاف بين علي الخليفة ومعاوية الوالي رضي الله عنهما*.

"وكان شبهة معاوية ومن معه الطلب بدم عثمان، وكان الواجب عليهم شرعا الدخول في البيعة، ثم الطلب من وجوهه الشرعية وولي الدم في الحقيقة أولاد عثمان، مع أن قتلة عثمان لم يتعينوا"[1]. ودخل في هذه الشبهة أيضا طلحة والزبير وعائشة وأمهات المؤمنين رضي الله عنهم، وخرجوا كلهم من مكة إلى البصرة يستقوون بأهلها للقاء عليّ ابن أبي طالب وهو ما سمي بواقعة **الجمل****.

---

*."وهرب مروان بن الحكم والوليد بن عقبة وآخرون إلى الشام .. وخرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه .. فورد به على معاوية بالشام، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس .. وقام في الناس مع جماعة من الصحابة ..يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان ممن قتله ..وفي المدينة طلب الزبير وطلحة من علي أن يقيم الحدود، ويأخذ بدم عثمان، فاعتذر إليهما.. وولى علي على الشام سهل بن حنيف، فأرجعوه عنها إلى المدينة..وبعث علي إلى معاوية كتبا كثيرة فلم يرد عليه لها جوابا .. وتكرر ذلك مرارا إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان..فلما عزم علي بن أبي طالب على المسير لقتال أهل الشام جاءه ما يشغله"= ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، مصدر سابق، ص ص:421. 430

[1]. ابن العماد، شذرات الذهب، ج1، مصدر سابق، ص ص:213.212.

. نسبة إلى الجمل الذي كانت تركبه عائشة، يذكر أن طلحة والزبير..ثم خرجا من مكة ومعهما عائشة إلى البصرة يطالبون بدم عثمان. واجتمع معها قبل ذلك خلق من سادات الصحابة وأمهات المؤمنين فقامت عائشة رضي الله عنها في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان.. فاستجاب الناس لها وطاوعوها على ما تراه من الأمر..وأشار عليها قوم فقالوا: " نذهب إلى البصرة فنتقوى بالخيل والرجال ونبدأ بمن هناك من قتلته" وبلغ عليا رضي الله عنه ذلك.. فلقي طلحة والزبير وعائشة ومن كان معهم من أهل البصرة وغيرهم، **يوم الجمل(جمادى الثانية 36هـ) وظفر بهم وقتل يومئذ طلحة والزبير وغيرهما، وبلغت القتلى ثلاثة عشر ألف قتيل، وأقام علي بالبصرة خمس عشرة ليلة ثم انصرف إلى الكوفة "= ابن

والتقى علي ومعاوية بعد ذلك في **صفين**[1]*فتقاتلوا فيها وأنهوا قتالهم بالتحكيم،يقول السيوطي:" وكتبوا بينهم كتابا على أن يوافوا رأس الحول .. فينظروا أمر الأمة.فافترق الناس ورجع معاوية إلى الشام وعلي إلى الكوفة[2]

ثم بانت الاختلافات بين المسلمين، **وأصبح الخلاف السياسي يتحول إلى اختلاف ديني** . يقول البغدادي:"فاختلفوا في قاتلي عثمان وخاذليه اختلافا باقيا إلى يومنا هذا، وفي شأن عليّ وأصحاب الجمل، وفي شأن معاوية وأهل صفين، وفي حكم الحكمين أبي موسى وعمرو بن العاص اختلافا باقيا إلى اليوم."[3]

= سعد، كتاب الطبقات الكبير، ج 3، مصدر سابق، ص 30. ،أيضا: ابن كثير،البداية والنهاية، ج 10، مصدر سابق، ص433.

*صفين: صحراء ذات كدى وأكمات، ودام القتال بها أياما، فرفع أهل الشام لما انهزموا المصاحف يدعون إلى ما فيها، مكيدة من عمرو بن العاص، فكره الناس الحرب، وتداعوا إلى الصلح ، وحكموا الحكمين، فحكم علي أبا موسى الأشعري، وحكم معاوية عمرو بن العاص... فخلا عمرو بأبي موسى ، وقال له نخلع عليا ومعاوية، ثم يختار المسلمون من يقع الاتفاق عليه، فلما خرجا إلى الناس قال عمرو لأبي موسى: قم فتكلم أولا، لأنك أفضل وأكثر سابقة،فتكلم أبو موسى بخلعهما، ثم قام عمرو فقال: إن أبا موسى قد خلع عليا كما سمعتم، وقد وافقته على خلعه..ثم سار أهل الشام وقد بنوا على هذا الظاهر، ورجع أهل العراق عارفين أن الذي فعله عمرو خديعة لا يعبأ بها"= ابن العماد، شذرات الذهب، ج 1، مصدر سابق، ص ص211.215. أيضا:السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص 140

[1].المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[1]. البغدادي، (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر محمد البغدادي)، **الفرق بين الفرق** ، تحقيق محمد عثمان الخشت، مصر الجديدة، مكتبة ابن سينا، (د، ط)، (د، ت) ص ص:34.35.

[1]. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص6.

[2].المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3]. البغدادي، (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر محمد البغدادي)، **الفرق بين الفرق** ، تحقيق محمد عثمان الخشت، مصر الجديدة، مكتبة ابن سينا، (د، ط)، (د، ت) ص ص:34.35.

"فظهرت **الفرق الدينية** ، وكبارها أربعة: القدرية، الصفاتية (الذين نفوا الصفات) الخوارج والشيعة"[1].

ومن هنا بدأ اصطباغ السياسة بالدين، وأدخلت العقيدة في صميم الحكم، فالخوارج ظهروا بعد صفين، وخرجوا على علي رضي الله عنه، وأرادوا الحرب على معاوية بعد التحكيم، فلم يسايرهم علي، فانسحبو ا وشكلوا لأنفسهم فرقة وقالوا: "**لا حكم إلا لله**" *وأفتوا بتكفير عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين. ثم عمموا الأمة في ذلك وقالوا بتكفير مرتكب الكبيرة.

إن العقيدة أصول ثابتة يؤمن بها المسلم يقينا في كل زمن وكل مكان حاكما كان أو محكوما، لكن السياسة اجتهاد رأي وإعمال فكر حسب مقتضى واقع الناس، والواقع متغير والاجتهاد فيه الخطأ والصواب، **فهل المخطئ وهولا يخالف الثوابت كافر** ؟ هذا ما أراد عليّ

---

[1]. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص6.

*يقول ابن خلدون: ".. ولما اعتزم عليّ أن يبعث أبا موسى للحكومة، أتاه زرعة وحرقوص، وقالا له: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم، فقال علي: قد كتبنا بيننا وبينهم كتابا وعاهدناهم، فقال حرقوص: ذلك ذنب تنبغي التوبة منه، فقال علي: ليس بذنب ولكنه عجز من الرأي، فقال زرعة: لئن لم تدع تحكيم الرجال لأ قاتلنك أطلب وجه الله. وخرجا من عنده يتناديان: لا حكم إلا لله، وخطب علي يوما، فتنادوا من جوانب المسجد بهذه الكلمة، فقال علي: الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل، وخطب ثانيا فقالوا كذلك .. وخرجوا عليه وعسكروا بحروراء، فبعث إليهم علي عبد الله بن عباس وغيره، فخاصمهم وحاجهم فرجع منهم قوم كثير، وثبت قوم على رأيهم، فسار إليهم علي فقتلهم بالنهروان.(38هـ)، ثم انصرف علي إلى الكوفة فلم يزل يخافون عليه الخوارج" = ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج 2، مصدر سابق، ص 637. أيضا: ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ج 3، مصدر سابق، ص30.

ابن أبي طالب إيصاله إلى رأسي، زرعة بن الربح الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي*.وهما زعيمي الخوارج ولكن أبوا عليه ورفضوا الإذعان، فحاربهم مع أتباعهم.
ومع فتوى التكفير أفتوا بإراقة دم الكافر مرتكب الكبيرة ،وانتدبوا ثلاثة نفر منهم ليقتلوا عليا ومعاوية وعمرو، فأخطأوا اثنين وأصابوا واحدا. وهو عليّ رضي الله عنه.
ثم خاضوا في المسائل العقدية والدينية وغيرها حتى اختلفوا فيما بينهم ،يقول البغدادي: "ثم اختلفت الخوارج بعد ذلك فيما بينها فصارت مقدار عشرين فرقة، كل واحدة تكفر سائرها"[1]
ثم ظهرت **الشيعة** كموقف سياسي ممن نزحوا ناحية علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وتشيعوا له في مقابلة من اغتصبوا منه الخلافة من بني أمية، وكان منهم كبار الصحابة كما رأينا في البيعة ،والشيعة كفعل سياسي كان موجودا، قبل أن يكون فرقة انحرفت عقائديا بعد ذلك.يقول الشهرستاني:" الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه وقالوا بإمامته "[2]
وكان الدور بعد ذلك على **المرجئة** القادمين من ميادين الجهاد الذين كانوا خارج الخلاف السياسي بين الفريقين،" فقالوا مقالتهم بالإرجاء** في الإيمان"[3]

---

*وحرقوص هذا هو ذو الخويصرة التميمي، الذي جاء إلى رسول الله، وقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل. حتى قال عليه الصلاة والسلام:" إن لم أعدل أنا فمن يعدل "؟ فعاود اللعين وقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى. حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" سيخرج من ضئضئ (الأصل والمعدن) هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"= الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، مصدر سابق، ص10

[1].البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 35.

[2]. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص 144.

.الإرجاء:** هو تأخير صاحب الكبيرة إلى القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة، أو من أهل النار، والمرجئة أصناف أربعة: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة= المصدر نفسه، ص 137

[3]البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 38.

ومعنى ذلك، أنهم يؤخرون أمر صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة. فكانوا يقولون لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

يقول حسن إبراهيم: "وهؤلاء في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني أمية. مخالفين في ذلك الشيعة والخوارج". [1] ثم تبحروا في مسألة مرتكب الكبيرة، حتى طرحوا مسألة **فعل العبد هل هو باختيار منه، أم مجبر عليه.**

فحدث زمن المتأخرين من الصحابة خلاف **القدرية** في **القدر*والاستطاعة****

هم **الجهمية والجبرية**(fatalisme) الذين خاضوا في مسألة الجبر و **الحرية***** في فعل العبد

---

[1]. حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ج1، بيروت، دار الجيل، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 14: 1416هـ1996م، ص 341.

*__القدرية__:(libre arbitre) مذهب من يرى أن للمرء حرية فيما يريد أو يفعل، وقدرة واستطاعة عليه، وهم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى

القضاء: هو وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة ، **القدر**: تعلق الإرادة الذاتية بالأشياء في أوقاتها الخاصة. فتعليق كل حال من أحوال الأعيان بزمان معين وسبب معين = الجرجاني، (علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني)، **معجم التعريفات**، تحقيق، محمد صديق المنشاوي، مصر، القاهرة، دار الفضيلة، (د، ط)،(د، ت)، ص 146.

__الاستطاعة__: عرض يخلقه الله في الحيوان يفعل به الأفعال الاختيارية، وفي عرف المتكلمين: هي عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك، أو القدرة التامة التي يجب عندها صدور الفعل. = الجرجاني، المصدر السابق ص 19.

***__الحرية__:(liberté)هي القدرة على تحقيق الفعل دون الخضوع لمؤثر خارجي، وإنما تصدر الأفعال عن المرء نفسه، بحيث يشعر أن الفعل صادر عن إرادته. =**المعجم الفلسفي**، مجمع اللغة العربية، مصر، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية:1403هـ1983م، (د، ط)، ص 71.

الجبر: لغة: أجبره: أكرهه. الإجبار في الحكم، يقال: أجبر القاضي الرجل على الحكم إذا أكرهه. قال أبو الهيثم: والجبرية الذين يقولون أجبر الله العباد على الذنوب أي أكرههم. = ابن منظور، (محمد بن

" ثم حدث في أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين، وانضم إليه عمرو بن عبيد في بدعته فطردهما الحسن عن مجلسه، فاعتزلا إلى سارية من سواري مسجد البصرة، فقيل لهما ولأتباعهما **معتزلة** لاعتزالهم قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر"[1]

وحدث التباين أيضا بين المسلمين كفرق ومذاهب نتيجة لأن الإسلام خرج من الجزيرة العربية إلى بيئات، وثقافات، وحضارات، ولغات مختلفة، وكان من الطبيعي أن تتأثر رؤية أرباب هذه الفرق وتابعيهم بهذا التنوع في المحيط الذي انتشر فيه الإسلام. في هذا الصدد يقول أحمد أمين: "الحق أن الامتزاج كان قويا شديداً.. فقد كانت حرباً بين الإسلام والديانات الأخرى، وكانت حرباً بين الآمال العربية وآمال الأمم الأخرى، وكانت حرباً بين اللغة العربية واللغات الأخرى، وكانت حرباً بين النظم السياسية والاجتماعية البسيطة وبين النظم الفارسية والرومانية، والحق أن العرب وإن انخذلوا في النظم السياسية والاجتماعية، وما إليها من فلسفة وعلوم، ونحو ذلك فقد انتصروا في شيئين عظيمين هما اللغة، والدين، حيث سادا في أرجاء العالم الإسلامي، وإن تأثرت اللغة باللغات الأخرى، والدين حدثت فيه الفرق"[2]

ثم غالت هذه الفرق في اختلافاتها،وصالت وجالت في مسائل العقيدة، في التوحيد والعدل والنبوة والمعاد..حتى خاضوا في الذات الإلهية وصفاتها. واستخدموا في ذلك العقل، وإن استخدموا النقل فقد كانوا يعتمدون فيه على التأويل العقلي.

=مكرم بن منظور الإفريقي المصري)، **لسان العرب**، ج4، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1: 1997، ص116.

[1].البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 35.

[2]. أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص95.

في خضم ذلك ونتيجة لهذا المد والجزر بين الفرق الإسلامية داخليا ضد بعضها البعض، وخارجيا ضد ما يفد من عقائد وفلسفات، بان علم الكلام*

وترددت على ألسنة أرباب الفرق وتابعيهم مقولات كلامية **، وثار الجدل الديني السياسي، بين الفرق الكلامية والخلفاء، وظهر ذلك شديدا زمن بني أمية وبني العباس. في محاولات توظيف هذه المقولات، كل لصالحه السياسي.

---

*الكلام في اصطلاح النحويين: هو المعنى المركب الذي فيه الإسناد التام، و **علم الكلام**: هو علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد، على قانون الإسلام. = الجرجاني، معجم التعريفات، مصدر سابق، ص 115.

**المقولة:(catègorie) تطلق على كل تصور ذي مفهوم واسع تندرج تحته الأفكار والوقائع ،عند أرسطو: ما يحمل على غيره (prèdicamental)، وعند كانط: أحد المعاني الكلية للعقل الخالص =المعجم الفلسفي، مصدر سابق، ص ص:190.191.

الفصل الأول

نشوء المقولات الكلامية

إن الظاهرة الفكرية لا تنشأ هكذا فجأة، ودون ممهدات سابقة لها، والفكرة لا ترتبط نشأتها بزمن محدد، بل هي تراكمات واختمار، وتصادمات وسجال بين المتناقضات منها، وأصلها خاطر، ينتج إما قولا يسمع أو سلوكا يرى، ثم يمكن أن يفصح عنها من خلال الحوارات هنا وهناك.

والفكرة تنتقل من بيئة إلى بيئة عبر التيارات الفكرية المتنقلة المهاجرة بانتقال الأشخاص من أوطانهم وبلدانهم إلى بلدان أخرى، والسلوك يحمله الناس اقتداء، والقول تتناقله الأسماع وتذيعه الألسن.

وقد جرى التأريخ للأفكار من زمن الإفصاح عنها، وإظهارها والدعوة لها وبداية التجمع حولها ومناصرتها، أو التجمهر ضدها ومحاربتها، فحينما نبحث عن بداية فكرة ما، نتبع في ذلك التأريخ لها، والتاريخ لا يؤرخ للأفكار إلا من بداية القول بها أو تجسيدها سلوكا، أو ابتداء الدعوة لها.

ومعنى ذلك أنه لا ندري من أين تبدأ عملية التفكير في شيء ما، ولك ن نعلم أن هناك شخص بدأ القول لسبب من الأسباب، ثم يأتي من ينقله، ثم تتلو ذلك أجيال، هنا ك شخص فكر ابتداء، ولكن لا يمكن تحديده إلا إذا نطق بها و وأفصح عنها، فتنسب حينئذ إليه، ومن هنا يبدأ التأريخ، وتعرف بدايات النشوء.

والذي لا يختلف حوله اثنان، أن هناك أناس ماتت معهم أفكارهم، وبالطبع لم يفصح عنها ولم يعلمها الناس، ربما كانت أفيد للبشرية لو علمت، وربما كانت ستضر لو أعلنت. فهؤلاء لا يمكن معرفتهم لعدم وجود أثر أفكارهم في واقع الناس، وهناك أفكار عاش أصحابها وأعلنوها وعنوا بها وانتصرت لها الجماهير، وربم ا أصبحت نظريات وانتظمت في التاريخ الثقافي للبشر.

إن ميلاد هذه الأفكار هو حينما تعلن قولا يسمعه الناس، أو سلوكا يرونه.

فتبدأ حركة التأثير حينئذ، إما إيجابا أو سلبا، إما بالاستقبال أو الرفض، من خاصة الناس أو من دهمائهم.

ثم إن البيئة الداخلية للمجتمع بما فيها من انتماءات، والتركيبة الاجتماعية بما فيها من طبقات، وعقليات الناس المستقبلة أو الرافضة، والإيديولوجية **السياسية** الحاكمة*، والعوامل الخارجية من ثقافات وديانات وفلسفات وفنون، كلها تصنع من هذه الأقوال والأفعال ثقافة معينة، تصبح هي الشائعة والسائدة يحملها اللاحق عن السابق.

يقول "غولد تسيهير":" حيث تؤدي الثقافة المشتركة للأفكار المستسقا ة من الأنصار والأوائل إلى تكوين طائفة محددة عندئذ تتخذ تلك الأفكار شكلا مجسما عن طريق وسائل داخلية في الطائفة نفسها أو بفعل تأثيرات البيئة المحيطة وهذه الأفكار تتقدم بواسطة من يشعرون أنهم مختارون ليكونوا المفسرين لها ..واستنادا إلى هذا الأصل ينشرونها على أنها التعاليم المقصودة منذ بدء الأمر ،ويتناقشون فيها فيما بينهم،ويقيمون الحجج البارعة .. للوصول إلى نتائج أخرى " (1)

والحديث عن نشأة المقولات الكلامية ينطبق عليه ما قدمناه، فنشأة مقولة كلامية،هو معرفة مصدر المقولة أولا، يعني أول من قال بها، والسبب لصدورها، والظروف المحيطة بها، ونحن في هذا الفصل إنما نريد أن نميط اللثام عن ذلك في مبحثين منفصلين: نشأة مقولتي الجبر والاختيار، ونشأة مقولة خلق القرآن.

---

* **السياسة**:(politique) فرع من العلم المدني يبحث في أصول الحكم وتنظيم شؤون الدولة. =المعجم الفلسفي، مصدر سابق، ص 99.

[1]. جولد تسيهير، (إجناس غولد تسيهير)،**العقيدة والشريعة في الإسلام** ، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين، مصر، دار الكتاب العربي، ط2:(د، ت)، ص ص:/78/77

المبحث الأول : نشوء مقولتي الجبر و الاختيار

يفضل الكثير من الباحثين الأقدمين أو المتأخرين حين كلامهم عن مسألتي الجبر والاختيار* (الحرية)، تسميتها ب:"**القدر**"وقد بدأ الناس سؤالهم عن القدر منذ الصدر الأول للإسلام، ويذكر للدليل على ما نقول غير حديث في ذلك، جمعها البخاري في باب سماه باب "القدر"، منها حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال:" **الله أعلم بما كانوا عاملين.**"(1)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله هذه الآية : **{هُوَ الّذي أنزَلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ منْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنّ أُمّ الْكتَاب وَأُخَرُ مُتَشَابهَاتٌ فَأَمّا الّذينَ في قُلُوبهمْ زَيْغٌ فَيَتّبعُونَ مَا تَشَابَهَ منْهُ ابْتغَاءَ الْفتْنَةَ وَابْتغَاءَ تَأويله" إلى قوله:" أُولُواْ الأَلْبَاب" قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم}(2).**

ومن خلال النصين يتبين لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان يضيف علم القدر إلى الله تعالى، ليصرف الصحابة عن الخوض فيه، والسؤال عنه. ومن جهة أخرى كان يحذر من الخوض في متشابه القرآن، ومعلوم أن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه، كالقضاء والقدر، وقيام الساعة، ومصائر الناس، وخروج الدجال .. وغير ذلك.

والذي يظهر لنا من الروايات أن الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تصول عقولهم ويجول فكرهم حول مسائل القدر، ونقصد مسائل التسيير والتخيير، وورد النهي أيضا من أصحابه صلى الله عليه وسلم،

---

*الاختيار: هو الاصطفاء وكذلك التخيّر، وتخيّر الشيء: اختاره، وأنت بالخيار أي اختر ما شئت، خيّرته بين شيئين أي فوّضت إليه الخيار. = ابن منظور، لسان العرب، ج4، مصدر سابق، ص266.

1. حديث رواه البخاري = ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 11، مصدر سابق، ص ص: 628581.

2. حديث رواه البخاري. = المصدر نفسه نفسه، ج8، ص 264.

حتى أن عمر بن الخطاب خرج عام سبعة عشر هجرية، يريد الشام ومعه المهاجرون والأنصار." فلما وصل إلى سرغ بلغه خبر انتشار الطاعون بالشام، فقام يشاور من معه من المهاجرين والأنصار فاختلفوا بين الرجوع ومواصلة المسير، فاختار عمر الرجوع، فقال له أبو عبيدة: «أفراراً من قدر الله؟ ». فقال عمر: «لو غَيْرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله ؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟». و بهذا الفهم استوى عند عمر الرجوع ومواصلة السير في القدر، أي في علم الله."(1).

ويذكر أن عليّا ابن أبي طالب رضي الله عنه كان يتوعد من يخوض في القدر أيضا * وينهى عنه أشد النهي.

والواضح أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يَنهونَ الناس لما نُهوا عنه ، بل ويشنعون على من يشيع الكلام في القدر و يظهر ذلك، حتى لا تحدث الفتنة (فتنة الناس في دينهم)، والظاهر من عبارة "أهل القدر" الواردة في حديث علي رضي الله عنه ،أن الذين

---

[1]. رواه البخاري. ينظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 10، المصدر السابق، ج 10، ص ص:220.221.

*سأله رجل وكرر السؤال مرارا: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر، فقال عليّ رضي الله عنه: يا سائل، إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟ فقال: كما شاء. قال: إن الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما يشاء؟ فقال: كما يشاء. فقال: يا سائل، لك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته أو دون مشيئته؟ فإن قلت مع مشيئته، ادعيت الشركة معه. وإن قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته. وإن قلت فوق مشيئته، كانت مشيئتك غالبا على مشيئته. إن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته إلا بالله عز وجل .. قوموا إلى أخيكم المسلم وخذوا بيده. ثم قال علي: **لو وجدت رجلا من أهل القدر لأخذت بعنقه ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه، فإنهم يهود هذه الأمة.** =حسين مروة، **النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية**، ج 2، بيروت، دار الفارابي، (د، ط): 1979م، ص 55.

كانوا يتكلمون في مسائل القدر كانوا في ازدياد، وأظهروا خوضهم، وإلا لما وصل الأمر بعلي أن يتوعدهم بالضرب.

ولم يكن علي رضي الله عنه وحده الذي يشدد النهي عن الجدل في الأقدار، فقد أنكر أبو هريرة (ت 57 هـ أو 59 هـ)، وعقبة بن عامر الجهني (ت 58 هـ)، وعبد الله بن عباس (ت 68 هـ)، مقالتهم. ومما روي عن ابن عباس أنه قال: «إيّاك والنظر في النجوم، فإنه يدعو إلى الكهانة، وإياك والنظر في القدر، فإنه يدعو إلى الزندقة، وإيّاك وشتم أصحاب الرسول، فيكبّك الله في النار على وجهك إلى يوم القيامة»(1)

نرى إذن أن فكرة الجبر والاختيار كانت موجودة تختمر في الفكر، ولئن أظهرها رجل وسأل عنها عليا رضي الله عنه، فكم من الناس لم يسألوا عنها ولم يظهروا ذلك؟

" وما تقرره الشواهد الكثيرة من أن الجدال في هذه القضية كان يتردد كثيرا في أوساط الخلفاء الراشدين، وأن الناس كانوا شغوفين يومئذ أن يعرفوا من هؤلاء الخلفاء مدى أثر القضاء والقدر في حياتهم ومصائر أعمالهم".(2)

ثم اتسعت دائرة السؤال في القدر، بين المسلمين بعد أحداث **الفتنة الكبرى** فقد ذكر المعتزلة أيضا قصة الشيخ الذي سأل عليا رضي الله عنه عند انصرافه من **صفّين**: "أكان المسير بقضاء الله وقدره؟ فأجابه علي بن أبي طالب بإجابة* قطعت دابر الشك عند الرجل، الذي كان يظن أن القدر **جبر وحتم**.

---

1. البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 15.

2. حسين مروة، النزعات المادية، ج2، مرجع سابق، ص 559.

*قال علي رضي الله عنه:" والله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا واديا ولا علونا قرية إلا بقضاء وقدر .. ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين ..=لعلك تظن قضاء واجبا وقدرا حتما، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة المذنب أولى من المحسن. تلك مقالة إخوان = الشياطين. هـ م **قدرية** هذه الأمة ومجوسها إن الله تعالى أمر تخييرا،

يضاف إلى ما سبق أن السؤال في القدر، كان نابعا مما تمليه إيحاءات القرآن الكريم. فنصوصه توحي بالجبر تارة، وتارة أخرى بالاختيار.

فمن النصوص التي يوحي ظاهرها بالاختيار:

قوله تعالى : **{إنّا هدَيْناهُ السّبيلاَ إمّا شَاكرًا وإمّا كفورًا}** (1)، وقوله أيضا :**{ وأنّ هَذا صرَاطي مُسْتقيمًا فاتّبعُوهُ ولاَ تتّبعُوا السّبلَ فتفرّق بكُم عَن سَبيله ذَلكمْ وصّاكمْ به لعلّكم تتّقونَ }**(2) ، وقوله:**{ فمَن شَاءَ فلْيُومن وَمن شَاءَ فَليَكفُرْ }**(3) ، وقوله تعالى:**{ وَمَن يّعْمل سُوءًا أو يَظْلمْ نَفْسه ثمّ يسْتغْفر الله يَجد الله غَفورًا رحيمًا ومن يّكْسب إثمًا فإنّمَا يَكْسبهُ علَى نَفْسه وَكَان الله عَليمًا حكيمًا }**(4) إلى أمثال كثيرة من هذه الآيات..

ومن النصوص التي توحي بالجبر:

قوله تعالى: {وَما **تَشاءُون إلاّ أن يّشاءَ الله}** (5) ، وغيرها من آيات المشيئة التي تكررت في القرآن الكريم أكثر من أربعين موضعاً في سورة "البقرة" و"آل عمران" و"النساء" و"الأنعام" وغيرها، وقوله تعالى: **{ إنّا كلّ شيء خَلقنَاه بقدَر }**(6)، وقوله تعالى : **{ وإن مّن شَيء إلاّ عندَنا خَزائنُه ومَا ننزّلُه إلاّ بقَدر مّعلُوم }**(7)،وقوله تعالى:**{ قل لّن يّصيبَنا إلاّ مَا كتَبَ الله لنَا**

=ونهى تحذيرا، ولم يكلف جبرا ولا بعث الأنبياء عبثا، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للكافرين من النار".

=ابن المرتضى، (أحمد بن يحي المرتضى)، **المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل** ، تصحيح توما أرنولد، حيدر آباد، دائرة المعارف الشامية، (د، ط): 1316هـ.ص ص: 7.8.

[1]. سورة الإنسان، الآية: (03).

[2]. سورة الأنعام، الآية:(153).

[3]. سورة الكهف، الآية:(29).

[4]. سورة النساء، الآيتان:(110،111).

[5]. سورة الإنسان، الآية:(30).

[6]. سورة القمر، الآية:(49).

[7]. سورة الحجر، الآية:(21).

}(1) . وقوله تعالى: **{ونَفْس وَمَا سوّاهَا فَأَلْهمهَا فُجورهَا وتَقْواهَا}**(2)، وغير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة.

ورغم ذلك كان الرسول صلى اله عليه وسلم يبين للصحابة ما أشكل عليهم في القرآن، فقد كان هو المفسر، والموضح لمتشابهه، ولم تثر فيهم الاختلافات كالتي ستحدث من بعد، وكان القرآن ينزل منجما، كل آية تنزل في موضعها، ولها سبب معلوم لديهم في بعض الأحيان، مع العلم أنهم كانوا أهل سليقة تُسهل لهم الفهم، وتمكنهم من ناصية اللغة العربية، ومن الإحاطة بالبيان و البلاغة، ليس كما سيكون من تبدل اللسان وطروء اللحن عليه بدخول الأعاجم، زيادة على ذلك كله، النهي الصادر من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخوض في مسائل القدر.

"وانقضى الصدر الأول من حياة الصحابة، ثم أخذ يظهر الجدال والمراء في الدين بين الناس"(3)،وما كان من ابتداء قضية القدر سؤالا . لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأصحابه . صار بعد ذلك نزاعا، يقول القاسمي:" فافترقوا في الإرادة وخلق أفعال العباد حزبين:

أ . **النفاة** يقولون: لا إرادة إلا بمعنى المشيئة، وهو لم يرد إلا ما أمر به.

ب . **المثبتون:** للقدر من المجبرة .. الذين قالوا: ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة، وقالوا العبد لا فعل له البتة، ولا قدرة، بل الله هو الفاعل القادر

---

[1]. سورة التوبة، الآية:(51).

[2]. سورة الشمس، الآيتان:(7، 8).

[3]. طاش كبرى زاده، (أحمد بن مصطفى)، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، ج 2، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1: 1405هـ1985م، ص. 31.

فقط"(1)،" أي ذهبت طائفة إلى أن الإنسان مجبر على أفعاله ولا استطاعة له أصلا. وطائفة تقول أنه ليس مجبورا وأثبتوا له قوة واستطاعة بها يفعل ما اختار فعله."(2).

وبعد هذه التقدمة نقول: **هل كان القول بالجبر والاختيار، وليد بيئة إسلامية خالصة، أم انتقل إلى الفكر الإسلامي من ديانة، أو فكر، أو فلسفة غريبة عنه؟**

" ينقل عن **اليهود** نقاش عقلي حول القدر والجبر والاختيار، فالقراؤون * (النصيين أو الحرفيين) يقولون بالجبر أو القدر، والربانيون ** يقولن بالاختيار.ولا شك أن الذين يلتزمون حرفية النص في العقيدة، أو يفوضون الأمر في فهمها وشرحها لله، يكونون أشد ميلا لعقيدة القدر من غيرهم. كما أن الذين يؤولون ويدخلون شخصيتهم في شرح مبادئ العقيدة، يؤيدون عقيدة الاختيار. ولهذا كان القراء من اليهود جبريين، والربانيون منهم أصحاب الاختيار". (3) ونلاحظ في هذا التعليق الفرق الواضح بين الجبرية اليهودية، والجبرية الإسلامية. فالأولى تأخذ عقيدتها في القول بالإجبار من التزام حرفية النص أي ظاهره، والثانية تلتزم ظاهر النص أحيانا ولكن تعتمد التأويل أيضا في الاستدلال على القول بالجبر كما سنرى، وهذه

---

[1]. جمال الدين القاسمي، **تاريخ الجهمية والمعتزلة** ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1: 1399هـ1979م. ص73

[2]. ابن حزم الأندلسي، (أبو محمد علي بن أحمد)، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ج3، تحقيق محمد إبراهيم نصرو عبد الرحمن عميرة، بيروت، دار الجيل، ط2: 1416هـ1996م، ص33.

*. **القراؤون:** هم بنوا مقرا، ومعنى مقرا الدعوة، وهم يحكمون نصوص التوراة ولا يلتفتون إلى قول من خالفها ، ويقفون مع النص دون تقليد من سلف، وهم من العداوة مع الربانيين بحيث لا يتناكحون ولا يتجاورون = ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، مرجع سابق، ص 223.

.الربانيون:** ويقال لهم بنو مشتو، ويعولون في أحكام الشريعة على ما في التلمود، وهي بعيدة عن العمل بالنصوص الإلهية متبعة لآراء من تقدمها من الأحبار، وكان منهم طائفة يقال لهم " الفورشيم" ومعناه المعتزلة. = ينظر: المصدر نفسه، ص ص: 232. 233.

[3]. محمد البهي، **الجانب الإلهي من التفكير الإ سلامي**، الطبعة الرابعة. ص 90/89.موقع: http:/www.4shared.com/file/Qo_Bun5v/___.html

تكون حلقة اشتراك أيضا مع الربانيين، وهم أصحاب الاختيار، وأصحاب الاختيار من المسلمين في تناول عقيدتهم يأخذون بظاهر النصوص أيضا فيكون ذلك نقطة التقاء بينهم وبين الجبرية اليهود، ولكن يعتمدون التأويل أيضا، وحاصل هذه المقارنة أن القائلين بالقدر جبرا أو اختيار من المسلمين ليسوا كالقائلين به من اليهود، على الأقل في منهج تعاملهم مع النصوص.

يقول "محمد البهي": " نرى وجود الجبرية والمعتزلة . قالوا بالاختيار . متأخرا عن قراء اليهود وربانيّيهم، كما نرى أن اليهود قد كانوا أساتذة للمسلمين في نواحي متعددة من نواحي المعرفة. ألهذه الاعتبارات من نشأة الجبرية والمعتزلة في الجماعة الإسلامية، ومن تأخر وجودهما عن قراء اليهود وربانييها، ومن اختلاط هؤلاء وأولئك بالمسلمين، يصح أن يدعى بأن نشأة الجبرية في الجماعة الإسلامية وقول المعتزلة من بين فرقها بالاختيار، كان أثرا من آثار اليهود؟"(1).

هذا تساؤل يقدمه البهي ليفند به رأي من قال أن الفرق الكلامية ربما أخذت مقولاتها في القدر عن اليهود، وسيجيب عنه بعد ذلك، لكن نقول أن الواقع التاريخي يعضد رأي من قال أن مصدر المقولة يهودي، وهو وجود اليهود جنبا إلى جنب مع المسلمين في المدينة، والنص القرآني ينزل، والوحي يتلى. وهم زيادة على ذلك أهل كتاب **يعرفون عقائد القرآن كما يعرفون أبناءهم**، ألا يمكن أن يثار الكلام في القدر من اليهود على مسمع من المسلمين حينكما تنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أن اليهود كانت تثار بينهم بعض نصوص القرآن بعد تنزيلها، وكان يعلق القرآن الكريم على بعض ما يقولونه، فهل نقل التفكير والنقاش فيمسائل القدر من اليهود إلى المسلمين؟

" يتحدث نفر من الكاتبين في الديانات الشرقية، وعلى الأخص في الديانات السامية، اليهودية والمسيحية، من الشرقيين والمستشرقين، القدماء منهم والمحدثين...وكأنهم يرون أن

---

1. محمد البهي، المرجع السابق، ص 91.

الجبر والاختيار خاصة من خواص اليهودية، سرت منها إلى المسلمين بعد أن اختلط بهم اليهود".(1)

يرى حسين مروة " أن وضع المسألة في هذا النطاق وحده يخالف الواقع التاريخي، بقدر ما يخالف منطق العلاقة بين الظاهرات الفكرية والظاهرات الاجتماعية، وهو منطق له صفته الموضوعية التي لا يمكن أن يلغيها إغفال الباحثين لها أو عدم رؤيتهم إياها،على أن العجيب في الأمر هنا أن بعض هؤلاء الباحثين أنفسهم قد وضعوا أمامنا في بحوثهم الخاصة بمسألة القدر ذاتها مادة صالحة جدا لرؤية تلك العلاقة، ولكنهم وضعوها بصفتها مادة تاريخية وحسب، دون أن يستخدموها في شيء من التحليل العلمي يرجع المسألة إلى جذورها الحقيقية في واقع المجتمع الذي ظهرت فيه بأشكالها الخاصة"(2).

يعود البهي ليتساءل:" هل الجبر والاختيار حقيقة خاصة من خواص العقيدة اليهودية وبالتالي من إنتاج البيئة اليهودية الدينية؟ أم أن تحديد العلاقة بين الله والإنسان على نحو من اعتقاد الجبر أو اعتقاد الاختيار أمر يناقش في كل بيئة دينية وفي كل جماعة إنسانية لها عقيدتها ودينها؟؟بعد النظر في تاريخ الديانات نصل إلى أن تحديد العلاقة بين الله والإنسان على نحو ما ليس وقفا على بيئة دينية معينة، ولا على جماعة إنسانية خاصة، بل ذلك من القدر الإنساني العام الذي يوجد في كل جماعة متدينة."(3)

وقد وجدنا نصا في الملل والنحل لصاحبه الشهرستاني وهو يتكلم عن الفريقين، (الربانيين والنصيين) من اليهود في اعتقادهم بالقدر يقول: " وأما القول بالقدر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الإسلام، فالربانيون منهم كالمعتزلة فينا ، والقراءون كالمجبرة

---

1. محمد البهي، المرجع السابق، ص 91.
2. حسين مروة، النزعات المادية، ج2، مرجع سابق، ص 563.
3. محمد البهي، الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، مرجع سابق، ص 93.

والمشبهة" (1)، ومعلوم أن الشهرستاني . وهو من الأشاعرة . لو كان لديه ما يثبت أن المعتزلة في قولهم بالاختيار أخذوا عن اليهود الربانيين، لما كان حديثه تشبيها للمعتزلة باليهود فقط! ولذكر أنهم أخذوا عنهم قولهم ومذهبهم في القدر أيضا.

" وعلى هذا فكون جماعة دينية تؤثر في طائفة أخرى لها دين آخر، أو طائفة تتأثر بأخرى لا يصح أن يكون في العقيدة نفسها، وإنما في معالجتها وحلها، أوفي التوجيه إليها ولفت النظر إلى مناقشتها. ولا ننسى جانب الاختلاط على هذا النحو، ما يكون في أصل مصدر العقيدة من عبارات ما يوحي ظاهرها بوجه من الوجهين في تحديد علاقة الإنسان بالله .. والقول إذن بتأثر جماعة دينية بأخرى في أساس العقيدة المعينة بناء على هذا فيه ضرب من المبالغة، أو فيه مجاوزة للظواهر النفسية للجماعات الإنسانية وعدم اعتبار لها"(2).

وهناك من يرجع نشأة القول بالقدر إلى **النصرانية** ، قال الأوزاعي *: " أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن، وكان نصرانيا فأسلم ، ثم تنصر. أخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد" (3)، " . و قال اليعاقبة **من النصارى، ومذهبهم قريب من

---

[1]. الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، مصدر سابق، ص ص: 232. 233.

[2]. محمد البهي، المرجع السابق، ص 93.

*. الأوزاعي: (م88هـ . 157هـ) أبو عمرو، اسمه عبد الرحمن بن عمرو، والأوزاع بطن من همدان، كان ثقة مأمونا صدوقا فاضلا خيرا كثير الحديث والعلم والفقه حجة = ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ج 9، مصدر سابق، ص 494.

[3]. قول الأوزاعي، أورده الإسفرايني، (أبو المظفر الإسفرايني)، **التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين** ، تحقيق كمال يوسف الحوت، بيروت، عالم الكتب، ط 1: 1403هـ1983م، ص 21.

** فرقة مسيحية، نسبة إلى يعقوب البرذعاني، وكان راهبا بالقسطنطينية، قالوا بالأقانيم الثلاثة. = الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، مصدر سابق، ص 253.

مذهب أصحاب النص . الجبريين من اليهود . قالوا بالجبر؛ وقال النساطرة [*]، ومذهبهم قائم على التأويل والعقل، قالوا بالاختيار. ووجدت عقيدة الاختيار وعقيدة الجبر عند المسلمين لا على أنهما منقولتان عن غيرهم، بل على أنهما من تطورات الاعتقاد في جماعتهم(1)

ويذهب أحمد أمين، إلى أن مسألة الجبر والاختيار شغلت **الفلاسفة** ورجال الدين في العصور المختلفة .. فلما انتهى المسلمون من الفتح وهدأوا وأخذوا يفكرون ظهرت هذه المسألة، وكان قد تكلم فيها من قبل **فلاسفة اليونان**، ونقلها عنهم **السريانيين**، وتكلم فيها **الزردشتيون**[**]،كما بحث فيها النصارى، فظهر في الإسلام قوم يقولون بحرية الإرادة، معارضين في ذلك الفكرة الشائعة بأن الإنسان مسير لا مخير" (2)

" إن علماء المسلمين القدامى تلقوا من علماء الكلام أو اللاهوت المسيحيين ما حملهم على الشك في القدر الأزلي المطلق، وذلك أنه بالتدقيق كان الجدل والمشاحة في هذه النقطة من المذهب (من علم الكلام أو اللاهوت) يشغل عقول اللاهوتيين [***] في الكنيسة الشرقية، فدمشق، المركز العقلي للإسلام في عهد الخلافة الأموية، وكانت في الوقت نفسه مركز

---

[*] فرقة مسيحية، وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر زمن المأمون، وتصرف في الأناجيل، وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة. ويقولون أن المسيح اتحد بالإله في المشيئة لا في الذات. = الشهرستاني، المصدر السابق، ص 251.

1. محمد البهي، الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، مرجع سابق، ص102.

[**] الزردشتيون: أصحاب زرادشت بن بورشسب، الذي يزعم المجوس نبوته، وكان فيما يزعم أهل الكتاب من اهل فلسطين، ونزل أرض الهند وكانت له دعوة ثمة. =الشهرستاني،الملل والنحل، ج 2، مصدر سابق، ص 264.

2. أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص 309.

[***] لاهوتي :(théologique)،نسبة إلى اللاهوت (théologie)، وهوعلم يبحث في وجود الله وذاته وصفاته، ويقوم عند المسيحيين مقام علم الكلام عند المسلمين.= المعجم الفلسفي، مصدر سابق، ص160.

التفكير النظري في القدر، وفي المذهب الجبري أيضا، ومن هناك انتشر هذا التفكير سريعا في ميدان أكثر اتساعا".(1)

و يضيف جولد تسيهير جانبا أسطوريا آت من الهند، نمى في الإسلام، وأنمى فكرة الجبر، وهو عبارة عن رواية أسطورية كنوع من تفسير التوراة، ومضمونها:" أن الله أخرج فور خلق آدم، من جوهره الجثماني الجسيم الضخم جميع الناس في صورة مجموعات صغيرة من النمل، ويكون في هذه اللحظة قد عين طوائف الناجين والهالكين، هذه الطوائف التي جعلها تستقر في الناحية اليمنى والناحية اليسرى من جسم أول مخلوق، وكل جنين من هذه الذرية له قدره الحيوي، يكتب بواسطة ملك خاص يعين لهذا العمل "منقوش على الجبهة" أي قدر له ما يكون من السلامة أو الهلاك، كما قدر له ما سيكون منه وله من الأمور الأخرى"(2).وعند المسلمين توجد هذه العقيدة، وهي أن الله لما خلق آدم مسح على ظهره فخرجت كل نسمة منه، وأخذ منهم ميثاق التوحيد، وأشهدهم على أنفسهم، وهذا ما يسمى "عالم الذر".

ولكن سامي النشار فند أن يكون المسلون في مسألة القدر قد تأثروا بالمسيحيين أو بفلسفتهم، يقول:" إن حركة أصحاب مذهب الإرادة الحرة، أو ما أسماهم به أعداؤهم ب:"القدريين" لم تكن امتدادا لحركة خارجية، وإتماما للنسق الفلسفي اليوناني المسيحي من قبل. لا نجد أبدا في تاريخ نشأة الفكر الإسلامي، أسسا تسند القول بأن المسلمين هنا في أول أمرهم كانوا في مجال بحث الاختيار والجبر، تلاميذ للمسيحيين أو لليونان. إن النصوص واضحة أن الأمر

---

[1]. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق، ص 94.

[2]. المرجع نفسه، ص 95.

كان فقط من بنية مجتمعهم.. ولا شك أن محاولة ربط عقائد أصحاب مذهب الإرادة الحرة بنصراني أسلم، ثم تنصر محاولة غير صحيحة، سار عليها أصحاب الفرق المختلفة"(1).

وبعد محاولتنا إماطة اللثام عن أصل القول بالجبر والاختيار، نعود إلى من كان له السبق بين المسلمين في القول بالقدر،" فلقد عرف أصحاب مذهب الإرادة الحرة في الإسلام، أي القائلون بالاختيار تحت اسم " **القدرين الأوائل**" أي أنهم نسبوا إلى القدر الذي أنكرو" (2). ويوضح الشهرستاني أسماء هؤلاء بقوله:"وأما الاختلافا ت في الأصول فحدثت في آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهني * وغيلان الدمشقي **، ويونس الأسواري في القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر.

---

[1]. النشار، علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام** ، ج1، القاهرة، دار المعارف. (د ط) (د،ت)،ص ص: 315.319.

[2]، النشار، المرجع السابق، ص 314.

*. **معبد الجهني:** هو معبد بن خالد الجهني، استقدمه عبد الملك بن مروان دمشق لينفذه إلى ملك الروم، ثم جعله مع ابنه سعيد يؤدبه ويعلمه، كان رجلا من جهينة فيه زهو، قيل قتله عبد الملك بن مروان وصلبه بدمشق سنة 80 للهجرة. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج25، مصدر سابق، ص 114.

. **غيلان الدمشقي: أبو مروان، أخذ العلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية ،كاتب من البلغاء تنسب إليه فرقة الغيلانية من القدرية، وله من الرسائل ما يدخل في مجلدات، تشتمل على العدل والتوحيد والوعد والوعيد، كانت وفاته بعد سنة 105 للهجرة.= القاضي عبد الجبار، طبقات المعتزلة، مصدر سابق، ص ص 229. 230.

ونسج على منوالهم واصل بن عطاء الغزال * وكان تلميذ الحسن البصري ** وتلمذ له عمرو بن عبيد ***."وزاد عليه في مسائل القدر."(1).

وهؤلاء الذين ذكرهم الشهرستاني إنما هم القدرية الأولى، لأن لفظ القدرية يطلق على المعتزلة أيضا فقد أطلقه عليه خصومهم، يقول البغدادي عنهم: " فقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم وأنه ليس لله عز وجل في أكسابهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنع وتقدير. ولأجل هذا القول سماهم المسلمون القدرية" (2)،" والقدرية ابتدأت بدعتهم في زمان

---

*. **واصل بن عطاء الغزال** : (م 80،ت 181هـ) أحد الأئمة البلغاء والمتكلمين في علم الكلام وغيره، وسمي غزالا لأنه كان يلازم الغزالين، وله كتاب أصناف المرجئة، كتاب التوبة، المنزلة بين المنزلتين ، وكتاب معاني القرآن.= ابن خلكان ، (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان)، =**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج6، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د، ط)، (د، ت) ص ص: 7. 11..

. **الحسن البصري: ولد بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، كانت أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، كان جامعا عالما عاليا رفيعا فقيها ثقة مأمونا عابدا ناسكا كثير العلم فصيحا جميلا وسيما، توفي في رجب ليلة الجمعة، سنة 110 للهجرة = ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ج9، مصدر سابق، ص ص: 157. 178.

***. **عمرو ابن عبيد:** أبو عثمان، الزاهد العابد، القدري كبير المعتزلة، أعجب به واصل بن عطاء وزوجه أخته، وقد كان الخليفة المنصور يعظم ابن عبيد، وله كتاب العدل والتوحيد، والرد على القدرية، معتزلي كان كثير الحديث عن الحسن وغيره، توفي سنة 144 للهجرة، ودفن بمران على ليال من مكة وهي في طريق البصرة. = المصدر نفسه، ص 272. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 2، مصدر سابق، ص 2965.

1. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص ص: 38.22.

2. البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 104.

الحسن"(1)، والمعتزلة هم امتداد للقدرية والجهمية، وهما فرقتان (رغم اتفاقهما في الأخذ بالتأويل العقلي كمنهج) متضادتان مختلفتان، فالأولى قدرية،والثانية جبرية."(2)

وقد أظهر القول بالجبر والاختيار في آخر أيام الصحابة . الصغار سنا . فنحن نتكلم إذن عن النصف الثاني من القرن الأول للهجرة ما يوافق منتصف القرن السابع للميلاد، ويحدد الإسفراييني هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم وعلاقتهم بالقدرية الأوائل فيقول:" .. وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة، كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي،

وجعد ابن درهم*، وكان ينكر عليهم من بقي من كان بقي من الصحابة: عبد الله بن عباس، وجابر، وأنس، وأبو هريرة، وعقبة بن عامر وغيرهم، وكان هؤلاء الصحابة يوصون أخلافهم بأن لا يسلموا عليهم، ولا يعودوهم إذا مرضوا، ولا يصلوا عليهم إذا ماتوا"(3)

ولنقف مع هذه الشخصيات ونحن بصدد الكشف عن المقولة، لنقتفي أثر قولهم بالقدر والمواطن التي أذاعوه بها " فقد كان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام، وبعضه في المدينة، فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم."(4).

معبد الجهني، "وهو أول من قال بالقدر في البصرة، وانتقل منها إلى المدينة ونشر فيها مذهبه، وعنه أخذ غيلان الدمشقي"(5).

---

1. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص ص: 22
2. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 313.
* **الجعد بن درهم**: مؤدب مروان الحمار (الخليفة الأموي)، كان زنديقا وقد قال له وهب بن منبه: " إني لأظنك من الهالكين لو لم يخبرنا الله أن له يدا، وأن له عينا ما قلنا ذلك، ثم لم يلبث الجعد أن صلب، ومات سنة 118 للهجرة. = الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج1، مصدر سابق، ص 1291.
3. الإسفرايني، التبصير، مصدر سابق، ص 21.
4. القاسمي، تاريخ الجهمية، مصدر سابق، ص 73.
5. البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 107.

ويتضح لنا من قول البغدادي أن القول بالقدر ظهر أولا في البصرة . العراق . لأن معبد الجهني كان بها، ورواية أخرى تقول:" بأن حركة مذهب الإرادة الحرة، ظهرت أولا في مدرسة محمد ابن الحنفية. أي في المدينة . ثم انتقلت إلى مدرسة الحسن البصري في البصرة، وإلى مدرسة غيلان في دمشق، وفي البصرة نفسها ظهرت الحركة"(1).

ونجد "كبرى زادة" يوفق بين الروايتين بقوله: "إن أول أصحاب مذهب الإرادة الحرة في الإسلام. معبد بن خالد الجهني. قد نشأ في المدينة لا في البصرة، ويبدو أنه عاش في المدينة معظم حياته، ثم انتقل إلى البصرة في أواخر أيامه .. ويبدو أن أثره كان كبيرا في المدينة، واعتنق علماء المدينة من التابعين مذهبه. "(2).

" وبانتقاله إلى البصرة ذهب مع عطاء بن يسار إلى الحسن البصري. وقال :يا أبا سعيد: هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويقولون، إنما تجري أعمالنا على قدر الله. " (3)، ويذكر " أن الحسن أجابهما كذب أعداء الله"* "ويبدو أن معبد تتلمذ على الحسن بعد ذلك، أو على الأقل تقابل الاثنان وأثر كل منهما في الآخر."(4)

ولكن نعود فنسأل، من أين استقى معبد الجهني القول بالقدر؟

" يروي بن عساكر، أن أول من قال بالقدر، رجل من أهل العراق يقال له" سوسن"، كان نصرانيا فأسلم، ثم تنصر فأخذ عنه معبد"(5). وهذهرواية تعيدنا إلى القول بأن أصل المقولة

---

1. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 315.
2. طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة، ج2، مصدر سابق، ص 144.
3. المصدر نفسه، ص 144.

*. لم نجد هذا الرد من الحسن البصري، على معبد وعطاء، في مفتاح السعادة لكبرى زادة، ووجدناه عند النشار منقولا عن ذات الكتاب، = ينظر: النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 318.

4. ابن العماد، شذرات الذهب، ج1، مصدر سابق، ص 88.
5. ابن منظور، (محمد بن مكرم ابن منظور)، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، ج20، تحقيق مأمون الصاغرجي، دمشق، دار الفكر، ط1: 1406هـ1986م، ص 240.

المقولة النصارى، وقد أخذ منهم معبد، ولكن هناك من يذهب إلى أن قول معبد بالقدر سببه، الأحداث التي جرت في العراق أين قتل علي بن أبي طالب في الكوفة، وابنه الحسين في كربلاء رضي الله عنهما، وأثر ذلك في محمد بن الحنفية * الذي كان وراء حركة المختار التي بطشت بكل من شارك في قتل أخيه الحسين. يقول النشار عنه: " ثم عاد إلى المدينة .. واعتزل بعيدا عن الناس، وأنشأ المكتب، ودرس فيه كما درس أبناءه: أبو هاشم والحسن، وفي هذا المكتب وفي المدينة نفسها تبلورت الفكرة التي عرفت باسم . القدرية . التي تنكر أن أعمالنا إنما تجري بقدر الله وأن علينا الخضوع التام لهذا القدر الذي لا مناص منه ولا فرار.. إن معبد الجهني كان مدنيا أولا، وهو تلميذ لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه . وأبو ذر كان علويا. ثانيا، فلا شك أنه (أي معبد) كان صدى، وتلميذا، وأثرا لمدرسة محمد ابن الحنفية"(1) ،وربما هذا ما قصده حسن إبرا هيم حسن من وصول المقولة بعد ذلك إلى المعتزلة بقوله: "وقد تأثرت المعتزلة بالشيعة في قولهم بحرية الإرادة، تلك العقيدة التي وضع أساسها الأئمة من بيت علي" (2).ربما تأثر معبد بمحمد بن الحنفية من جهة كونه كان في المدينة، ثم لما انتقل إلى العراق سمع من سوسن مقالته، وبعد هذا نجد أن منشأ القول بالقدر(الاختيار خاصة)هو المدينة ، ثم انتقل بعدها إلى الأمصار الأخرى.

فهل كان ظهور مقولة الجبر أيضا في المدينة؟ هذا ما نحاول كشفه،مع الشخصية المقبلة.

غيلان بن مسلم الدمشقي أبو مروان،"يروى أنه أول من تكلم في القدر،ويقال أنه أخذ عن معبد،ولا منافاة فالأولية نسبية، فمعنى ذلك أن كلا منهما سبق وتقدم على كل من

---

* **محمد ابن الحنفية:** بن علي بن أبي طالب، أبو القاسم، كان كثير العلم والورع، وكان شديد القوة، وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلافة عمر، توفي رحمه الله في أول محرم سنة 81 للهجرة، ودفن بالبقيع. = ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ج7، مصدر سابق، ص ص: 93. 117.

1، النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 232.

2. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج2، مرجع سابق، ص 10.

خاض في القدر بعدهما" (1)، ويذكر البغدادي " أنه ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه" (2)، أي لم يتكلم أحد في القدر قبله إلا معبد الجهني، ودعا إليه،قال الأوزاعي:» أول من تكلم في القدر معبد الجهني ثم غيلان بعده" (3)، " وكان يتردد على المدينة حيث أثر في معظم علمائها، ومن المحتمل أنه تأثر بمعبد الجهني .. وكان داعية لمذهبه في علانية مطلقة .. ويبدو أن عمر بن عبد العزيز * كان على صلات طيبة به. وكان غيلان يدخل عليه وعمر يسأله عن أحوال الناس .. وكانا يتلاحيان بالآيات القرآنية يورد هذا آيات الجب، وذلك آيات الحرية .. ووعد غيلان بعد ذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز بأن لا يتكلم في القدر أبدا. ووفى بوعده. فلما مات عمر، سال منه السيل" (4). وسنعود لنتكلم عن علاقة الخليفة عمر ابن عبد العزيز مع غيلان في الفصل الثاني بشيء من التفصيل

ولكن لا يُعلم إن كان غيلان الدمشقي أخذ مقالة القدر عن معبد الجهني مباشرة،

وهذا شيء لم نجده في المصادر التي بين أيدينا على الأقل، وقد يكون اتفاق غيلان ومعبد في مقالة القدر راجعاً إلى أخذهما الفكرة من مصدر فكري واحد.

واصل بن عطاء الغزال: " وهو رأس المعتزلة وأول من دعا الخلق إلى بدعتهم، وذلك أن معبد الجهني وغيلان الدمشقي كانا يضمران بدعة القدرية ويخفيانها عن الناس ولما أظهرا ذلك أيام الصحابة لم يتابعهما على ذلك أحد

---

1. القاسمي، تاريخ الجهمية، مصدر سابق، ص 74.

2، البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 107.

3. طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة، ج2، مصدر سابق، ص 147.

*: **عمر بن عبد العزيز** : ابن مروان بن الحكم، أمه أم عاصم بنت عمر بن الخطاب، ولد سنة (63هـ) كان ثقة مأمونا، له فقه وورع وعلم، وروى أحاديث كثيرة، وكان إماما عادلا، توفي سنة (101هـ) في رجب، وهو ابن أربعين سنة، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر. = ابن سعد، كتاب الطبقات، ج 7، مصدر سابق، ص396.

4. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 322.

وصارا مهجورين بين الناس بذلك السبب إلى أيام الحسن البصري. وكان واصل في غرار من القولين يختلف إليه الناس." (1)." و سلك في ذلك مسلكهما، وقرر هذه القاعدة أكثر ما كان يقرر قاعدة الصفات ،فقال إن الباري تعالى حكيم عادل فلا يجوز أن يضاف إليه شر وظلم ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما بأمر، وأن يحكم عليهم شيئا ثم يجازيهم عليه، فالعبد هو الفاعل للخير والشر والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، وهو المجازي على فعله والرب تعالى أقدره على ذلك كله، وأفعال العباد محصورة في الحركات والسكنات والاحتمالات والنظر والعلم، وقال يستحيل أن يخاطب العبد ب: افعل وهو لا يمكنه أن يفعل وهو يحس من نفسه الاقتدار والفعل، ومن أنكره فقد أنكر الضرورة" (2). وخلاصة ما ذهب إليه: "أن أفعال العباد مخلوقة لهم، وأن كل واحد منهم ومن جملة الحيوانات كالبقة والبعوض والنملة، والنحلة، والدودة، والسمكة، خالق، خلق أفعاله، وليس الباري خالقا لأفعالهم ولا قادرا على شيء من أعمالهم، وأنه قط لا يقد ر على شيء مما يفعله الحيوانات كلها، ففعل الذباب، والبقة، والجرادة، أفعال هي خالقة لها، وليس الباري سبحانه قادرا عليها."(3)

" وقد تابعته فرق المعتزلة في هذا الأصل، فقالوا جميعا: بأن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ولا لشيء من أعمال الحيوانات، وقد زعموا أن النا س هم الذينيقدرون على أكسابهم ، وأنه ليس لله عز وجل في أكسابهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنع وتقدير، ولأجل هذا القول سماهم المسلمون القدرية" (4).ومعنى ذلك أن الإنسان يقدر على خلق أفعاله، لكن مع تنزيه لله تعالى، فلا يستوي خلق الله تعالى وخلق الإنسان.

---

1. الإسفرايني، التبصير، مصدر سابق، ص 67.
2. الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، مصدر سابق، ص 41.
3. الإسفرايني، التبصير، مصدر سابق، ص 64.
4. البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 104.

" ومن هنا سيطلق المعتزلة على أنفسهم "**أهل التوحيد والعدل**" التوحيد معناه: تنزيه الله من الصفات التي تطلق على البشر، والعدل ومعناه: نفي الظلم عن الله تعالى، وإثبات القدرة على الفعل والإرادة والاختيار والمسؤولية للإنسان، وبالتالي خضوعه للثواب والعقاب"(1).

الجهم بن صفوان: * "الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال. وأنكر الاستطاعا ت كلها"(2)، فقد راعت أراء معبد الجهني في القدر جهما، وكان جهم جبريا، فقام في خراسان يدعو إلى اعتناق فكرة الجبر المطلق" (3). "التي أخذها عن الجعد بن درهم" (4)،"ويبدو أنهما تقابلا في الكوفة، وأن جهما قضى بها فترة من الزمن" (5)،يقول ابن كثير: "سكن الجعد الكوفة فلقيه فيها الجهم بن صفوان، فتقلد هذا القول عنه"(6).

"والقائلون به يسمون الجبرية وهم يزعمون أن العبد ليس قادرا على فعله"(7).

" والجبرية أصناف: جبرية خالصة، هي التي لا تثبت فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا. وجبرية متوسطة وهي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما

---

1. الجابري، (محمد عابد الجابري)، **العقل الأخلاقي العربي**، لبنان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1: مارس 2001م ص 83.

*. **الجهم بن صفوان:** (ت 128 هـ) أبو محرز الراسبي، الكاتب المتكلم، رأس الجهمية، كان صاحب ذكاء وجدال، كتب للأمير الحارث بن سريج التميمي، كان ينكر الصفات ويقول:" أن الله في الأمكنة كلها"= الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج1، مصدر سابق، ص 1339.

2. البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 159.

3. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 334.

4. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 1، مصدر سابق، ص 129.أيضا: ابن كثير، البداية والنهاية، ج 1، مصدر سابق، ص ص: 27.26.

5. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص333.

6. ا ابن كثير، البداية والنهاية، ج9، مصدر سابق، ص 350.

7. الرازي، (فخر الدين الرازي)، **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** ، مراجعة علي سامي النشار، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1306هـ1938م، (د،ط)، ص 68.

في الفعل وسمي ذلك كسبا فليس بجبري...وقد اعتبر الجهم ابن صفوان من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمذ"(1).

ومعنى قولهم هّذا أن الإنسان كالريشة في مهب الريح فلا حرية له ولا اختيار ويوضح الشهرستاني جبرية الجهم فيقول: "..ومنها قوله في القدرة الحادثة أن الإنسان ليس يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ،وإنما هو مجبور في أفعاله، ولا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه كما يخلقها في سائر الجمادات، وينسب إليه الأفعال مجازا كما ينسب إلى الجمادات، كما يقال أثمرت الشجرة، وجرى الما ء،وتحرك الحجر ،وطلعت الشمس،وغربت، وتغيمت السماء وأمطرت،وأزهرت الأرض وأنبتت،إلى غير ذلك،والثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال جبر،قال وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضا كان جبرا"(2).

وذكر الأشعري قول الجهمية . وهم أتباع جهم . قولهم:" لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده وأنه هو الفاعل وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال : تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس ،وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك ، والشمس، الله سبحانه،إلا أنه خلق للإنسان قوة كان بها الفعل،وخلق له إرادة للفعل واختيارا له منفردا له "(3).ونلاحظ على هذا النص أن جهما من الجبرية المتوسطة، من قوله:"أنه خلق للإنسان قوة كان بها الفعل،وخلق له إرادة للفعل" فكأنما يقول بالكسب،وهو نفس ما قاله النشار وهو يشرح النص الآنف: "فالإنسان ليس مجبرا جبر الحيوانات أو الجمادات الصماء،إن الله خلق له قوة بها يفعل وبها يريد،وخلق له اختيارا انفرد به الإنسان دون غيره من الكائنات، فالجهم جبري

---

1. الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، مصدر سابق،ص 72.

2. المصدر نفسه،ص ص: 73.74.

3. الأشعري،(أبو الحسن علي بن إسماعيل)، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين** ،ج1،تحقيق محيى الدين عبد الحميد، بيروت، صيدا ،المكتبة العصرية،1411هـ/1990م،(د، ط) ، ص 280

لاشك في ذلك، ويقرر أن الله هو الفاعل على الحقيقة،ولكن يرى أن في هذا الجبر بعض الاختيار،إنه يقترب إلى حد ما من المذهب الكسبي."(1).

ولا يمكننا إغفال الجانب الاجتماعي في نشأة القول بالجبر، ونمثل على ذلك بالبصرة عقر دار الجبر،فقد كانت تعتبر آنذاك خليطا من الأفكار والثقافات التي تفد إليها من كل فج عميق، وموطن الكثير من الأجناس المختلفة الألوان والألسن،يقول النشار :" انتشرت الحياة الرخية في قصور البصرة وكان أهلها أكثر أهالي المسلمين فسادا، تحللوا من كثير من التكاليف، وارتووا من الفواحش المستحدثة،وشاعت الفكرة أنه قدر علينا ولامحيص...وفي مسجد البصرة كان الحسن البصري يعقد حلقاته..والأمر حواليه في البصرة يضخم ويتعلل الناس في المعصية بالقدر.وكانت المدينة تشتعل حينئذ بالنظرية التي تفكر أن يكون القدر سالبا للاختيار.أو بمعنى آخر نظرية حرية الإرادة الإنسانية"(2).

وعلى هذا يكون السبب الذي دعا لظهور القول بالجبر أيضا **الفساد الاجتماعي** المنتشر في البصرة، ودعاته من أرباب الأموال والسلطان،وليجوزوا ذلك الترف والفساد قالوا إنما هي أعمال مقدرة علينا ولا مفر من قدر الله تعالى.

وعامل آخر. لا يقل أهمية . لظهور المجبرة الأوائل، " هو الرد على المبشرين الأوائل بمذهب الإرادة الإنسانية الحرة . لا باسم بني أمية . من خلال تأويل عقلي،وكانوا أيضا حاجة من حاجات المجتمع،ونزوة من نزواته"(3).

وعلى رأس هذه العوامل مجتمعة، يجعل الجابري في طرقه موضوع الحرية والمسؤولية، الإطار الأول الذي نشأت فيه مقولة الجبر،هو الإطار السياسي،ذلك الإطار الذي طرحت فيه المسألة،أول الأمر،في الفكر العربي الإسلامي،وكان الذي طرحها هو معاوية بن أبي

---

1. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص ص: 344.343.
2. المرجع نفسه، ص ص:316.315.
3. المرجع نفسه، ص 327.

سفيان حين خطب في جنوده في صفين "(1). وسنعرض خطبته تامة حين الكلام عن التوظيف السياسي للمقولة.

[1]. الجابري، (محمد عابد الجابري)، **العقل السياسي العربي**، لبنان، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط4: أغسطس 2000م.ص 260. أيضا: الجابري، العقل الأخلاقي، مرجع سابق، ص 80.

القرآن هو المنزل على الرسول المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلا متواترا بلا شبهة،" والقرآن عند أهل الحق هو العلم اللدني الإجمالي الجامع للحقائق كلها" [1]، كما أنزله الله تعالى هداية للبشر بما حواه من معارف عقدية ،وأحكام شرعية ذلك ليجمع بين الإيمان والتطبيق،وهذا ما تكرر كثيرا بين دفتيه: "**الذين ء امنوا وعملوا الصالحات**" ، ولفظ القرآن عربي، له ظاهر أبهر الأولين، وباطن أغرى التالين، وطائفة المنبهرين نجد في طليعتهم عتبة ابن أبي ربيعة وهو يعبر نيابة عنهم بلسان حال مشدوه، مشدود . لآيات قرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . بقوله :"إنه ليس بالسحر وليس بالشعر ،إنه كلام لم يقله بشر ،إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة،وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ،وإنه يعلوا ولا يعلى عليه" وعبارات "عتبة" صادرة من ذي عقل حكيم ،وصاحب منطق سليم بين بني العرب.

وأما جانب الإغراء في اللفظ القرآني فهو دعوته العقل . بما له من سعة الباطن إلى الغوص في معانيه الكثيرة ومحاولة التعرف عليها واستخرجها، هذا ما جعل العقل يعمد إلى **التأويل**. والتأويل عملية عقلية قام بها العلماء، وخاصة المتكلمون منهم، وظهر جليا عند المعتزلة، حيث أوغلوا بالعقل في القرآن حتى قالوا **مخلوق***أي خلقه الله كباقي الأشياء، وليس كلاما متعلق بالذات الإلهية قديم بقدمها، بل هو حادث.

إذن كيف نشأ القول بخلق القرآن؟

يمكن أن نرجع سبب القول بخلق القرآن إلى الجدل الذي ثار بين الفرق الكلامية حول الصفات، "فمنشأ المسألة يرجع إلى مسألة الصفات عند المعتزلة" [2]،" فالمعتزلة غلوا

---

[1]. الجرجاني، معجم التعريفات، مصدر سابق،ص 146.

*. ا**لخلق**(création): هو إيجاد شيء من شيء،أو من شيء سابق فهو مجرد صنع وإحداث. = الجرجاني، المصدر السابق، ص 10.أيضا: المعجم الفلسفي، مصدر سابق، ص 81.

[2]. حسين مروة، النزعات المادية، ج 2، مرجع سابق، ص 677.

في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفي الصفات، والمشبهة قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام، والروافض غلوا في النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول"[1] وفكرة كلام الله كونت موضوعا من الموضوعات الهامة الجديدة جدا في الجدل العقدي. كيف يمكن أن نفهم أن الله له صفة الكلام؟ وكيف يفسر إبانة أو إظهار هذه الصفة بالوحي المادي في الكتب المقدسة؟" [2]

يقول أبو الحسن الأشعري " إن نفي هذه الصفة عن الله يلزم بهذا القول، ويلزم من أثبت كلام الله مخلوقا، أن يثبت أن الله غير متكلم ولا قائل" [3]

" وقد يعجب القارئ من شدة الاختلاف بين الناس في مثل هذا الأمر حتى احتكموا فيه إلى السيف" [4]، ومن النقاش الذي أثرى الساحة الكلامية، وأورى نار الاحتكاك بين المعتزلة وأهل السنة، لا نزال نجد حرها في بطون الكتب التي خلفوها لنا.

" كانت هناك معان غامضة زاد غموضها هياج الناس وتبلبل الأفكار، وأخذ الناس فيها بالشدة، فقد رأوا أن هناك قضيتين واضحتين وهما:

أ. أن كلام الله صفة له، وكل ما هو صفة فهو قديم: فكلام الله **قديم***.

---

[1]. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص 9.

[2]. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق، ص 113.

[3]. الأشعري، (أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري)، **الإبانة عن أصول الديانة**، لبنان، بيروت، دار بن زيدون،ط1: (د،ت)، ص 22.

[4]. أحمد أمين، **ضحى الإسلام** ،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، (د،ط): 2012م، ص ص: 718.719.

*ـ **القديم**: يطلق على الموجود الذي لا يكون وجوده من غيره، الموجود الذي ليس وجوده مسبوقا بالعدم وهو القديم بالزمان = الجرجاني، معجم التعريفات، مصدر سابق، ص 144.

ب . أن القرآن هو كلام الله وهو مركب من حروف مرتبة متعاقبة في الوجود، وكل ما هو كذلك **حادث*** (contingence) فالقرآن حادث ومخلوق.

فهاتان القضيتان شتتا أفكار الناس. وأدخلتاهم في منازعات جدلية شديدة، ودخلت العامة في النزاع فزادوا المسائل غموضا وشتاتا" [1]،بل وأوغلوا في الاختلاف " حتى قال بعضهم قديم بقدم الله تعالى، وبعضهم قال حادث، وبعضهم قال هو الخالق، وبعضهم قال بعضه، وقالوا هو في جسم، وقالوا ليس بجسم ولا عرض، وقالوا يوجد في مكان ، وقالوا يوجد في غير مكان، ومنهم من جعله حروفا مؤلفة، ومنهم من زعم أنه الحروف ولا نظم فيه، ومنهم من زعم أنه الحروف والنظم .. وغيرها من الاختلافات" [2].

ومجمل القول أن هناك طرفين في المسألة:

" الطرف الأول: يقول بأن القرآن مخلوق، وهم الجعد ابن درهم والجهم بن صفوان وكثير من الخوارج والشيعة، وبعض المرجئة، والمعتزلة جميعا.

والطرف الثاني: يقولون بأنه كلام الله قديم غير مخلوق، وهم أصحاب الحديث والسنة بإطلاق" [3].

والسؤال المطروح هنا لماذا تربط مقالة خلق القرآن بالمعتزلة دون سواهم؟

يجيب ابن الجوزي عن ذلك قائلا:" لم يزل الناس على قانون السلف وقولهم: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، حتى نبغت المعتزلة فقالت بخلق القرآن" [1]،

---

* **الحدوث:** كون الشيء مسبوقا بالعدم، وهو ضربان: حدوث زماني وهو كون الشيء مسبوقا بالعدم زمانا، وحدوث ذاتي، وهو افتقار الشيء في وجوده إلى الغير. = المعجم الفلسفي، مصدر سابق، ص 70.

[1]. أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص ص 719.718.

[2]. القاضي عبد الجبار ، (أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي)، **المغني في أبواب التوحيد والعدل** . خلق القرآن .، قدم نصه إبراهيم الأبياري إشراف د. طه حسين، (د، ط) (د، ت)،ص ص: 43.

[3]. فهمي جدعان، **المحنة** . جدلية الديني والسياسي . موقع: httpM//nj180degree.com ط 1: 2000م، ص ص: 25.24.

وبالعودة إلى مسألة الصفات وعلاقتها بموضوع خلق القرآن،" فإن المعتزلة شعروا بتصدع في وحدة الله الخالصة ، إذ لم يروا في صفة الكلام التي تشعر بالتشبيه المسلم بها(من جانب أهل السنة لله)، وفي التسليم بكيان أزلي بجانب الله شيئا أقل من حذف أو إلغاء وحدة الذات الإلهية" [2]، " كان لابد لهم أن ينظروا فيما ورد من هذه الصفات داخل النصوص الدينية، ليخضعوها للتأويل العقلي بما يوافق مقولتهم التوحيدية" [3] ،" فنفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا: هو عالم لذاته، قادر لذاته ،حي لذاته، لا بعلم وقدرة وحياة، هي صفات قديمة ومعاني قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية" [4]، "وزادوا على قولهم هذا ،أن الله تعالى لم يكن له في الأزل اسم ولا صفة" [5]،"وفي هذه الحالة كان التعارض على حبل ذراع الجميع، مادام الأمر لا يتعلق بعد بالتجريد أو التعطيل فقط ، كما في مسألة الصفات بصفة عامة، بل يتعلق بشيء محس تماما يأخذ المكان الأول في هذا التفكير النظري، وهذه المسألة التي ترجع في أصلها إلى مسألة الصفات وإن جاءت منها وصارت لها مكانة خاصة في الجدل الكلامي نجد مركز خطرها في هذه الصيغة: " **هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق؟** " وهذا استفهام كان من الواجب أن يثير اهتمام اقل المسلمين (اكتراثا بعلم الكلام) ولو أن الإجابة عنه تؤدي إلى سلسلة من الاعتبارات التي تتركه غير مكترث بذلك قطعيا" [6].

---

[1]. ابن الجوزي، (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي)، **مناقب الإمام أحمد بن حنبل** ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الرياض، ط:2:(د، ت) ص 416.

[2]. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق، ص 113.

[3]. حسين مروة، النزعات المادية،ج2،مرجع سابق، ص 677.

[4]. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص 38.

[5]. البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 104.

[6]. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق،ص ص: 113.114.

المبحث الثاني : نشوء مقولة خلق القرآن

يقول القاضي عبد الجبار:" ولا خلاف بين جميع أهل العدل(المعتزلة) في أن القرآن مخلوق محدث مفعول، لم يكن ثم كان وأنه غير الله عز وجل وأنه أحدثه بحسب مصالح العباد، وهو قادر على أمثاله، وأنه يوصف بأنه مخبر به، وقائل وآمر وناه، من حيث فعله، وكلهم يقول بأنه عز وجل متكلم به" [1].

" اتفق المعتزلة على القول بحدوث كلام الله عز وجل" [2]،" وأنه صفة فعل مخلوق" [3].

"فهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا الرؤية" [4] وقالوا بحدوث أمره وخبره ونهيه ..وأكثرهم اليوم يسمون كلامه مخلوقا" [5].

" نرى أن نفي الصفات، وتأويل النصوص، شكلا للمعتزلة قاعدة الانطلاقة، فخلال نظرهم في النصوص، وجدوا فيها صفة" الكلام" منسوبة إلى الله، قال الله تعالى : **{وَكَلّم الله مُوسى تكْليمًا}** ووجدوا أن القرآن في النصوص موصوف بأنه كلام الله، قال الله تعالى : **{وَإن احدٌ منَ المُشْركينَ اسْتجَارَكَ فأجرْهُ حتّى يسْمعَ كَلامَ الله}** . والمقصود "بكلام الله" القرآن نفسه، المعتزلة يقولون بثبات الذات الإلهية **(وحدوية الّذات)**، ولو قالوا أن صفة الكلام هي عين ذات الله تعالى، لخالفوا التوحيد عندهم، لأن القرآن متغير فيه الأمر والنهي، الوعد والوعيد، والإخبار والوصف .. فألزمهم أن يقولوا صفته غير ذاته، وألزمهم ذلك أن يقولوا حادثة، خروجا من تعدد القدماء بالشرك . وألزمهم أن يقولوا عن القرآن حادث" [6].

---

[1]. القاضي عبد الجبار، المغني، مصدر سابق، ص 3.

[2]. البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 104.

[3]. ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل،ج3، مصدرسابق، ص 11.

[4]. ابن الجوزي، (أبو الفرج بن الجوزي البغدادي)، **تلبيس إبليس** ،الإسكندرية، دار ابن خلدون،(د،ط) (د،ت)،ص 19.

[5]. البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 104.

[6]. حسين مروة، النزعات المادية، ج2، مرجع سابق، ص 678.

ونجد هم أيضا يحدثون المقارنة بين كلام الله مع الأنبياء، مع مراعاة اختلاف البيئة والزمن ، ليثبتوا تغير الكلام بين نبي ونبي ، فيترسخ لديهم أن صفة الكلام . المتغير . تنافي وحدة الذات الإلهية التي لا تتعدد، ومن بعض ما قالوا في ذلك:" إن الخطاب مع موسى عليه السلام غير الخطاب مع محمد عليه السلام، ومناهج الكلاميي ن مع الرسولين مختلفة، ويستحيل أن يكون معنى واحد، هو في نفسه كلام مع شخص على معان ومناهج وكلام ومع شخص آخر على معان ومناهج أخرى، ثم يكون الكلامان شيئا واحدا ومعنى واحد، أضف إلى ذلك أن الخبرين عن أحوال الأمتين مختلفان لاختلاف حال الأمتين، فكيف يتصور أن تكون حالتان مختلفتان يخبر عنهما بخبر واحد؟ .. فاستحال أن يكون الكلام صفة لله، وهو الواحد في ذاته وصفاته الذي لا يختلف ولا يطرأ عليه اختلاف" [1].

" إن المعتزلة ليفسروا أن "الله متكلم" قد اخترعوا نظرية عجيبة حيليه، فوقعوا بها من سيء إلى أسوأ، إنه في رأيهم لا يمكن أن يكون صوت الله هو الذي يظهر أو يسمع للنبي (صلى الله عليه وسلم)، حينما يحس الوحي من الله يؤثر فيه بعضو السمع، بل إنه صوت مخلوق. فحينما يريد الله أن يظهر بالسمع، يحول بعمل خالق خاص الكلام إلى حامل مادي" [2]، " كالشجرة مثلا في حادث موسى عليه السلام إذ زعموا أن كلام الله لموسى خلقه في شجرة" [3] وهذا هو الكلمة أو الكلام الذي يسمعه النبي. إن ذلك كلمة الله المباشرة بلا واسطة، ولكنها الكلمة المخلوقة لله " [4]، يقول الشهرستاني :" واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق ، في محل وهو حرف وصوت، كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه فإنما وجد في المحل عرض فقد فني في الحال" [5].والقاضي عبد الجبار وهو معتزلي يصرح بما قاله الشهرستاني

---

[1]. أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص713.

[2]. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق، ص 115.

[3]. الأشعري، الإبانة، مصدر سابق، ص 25.

[4]. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق، ص 115.

[5]. الشهرتاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص ص:39.38.

عنهم، فيقول: " والذي يذهب إليه شيوخنا، أن كلام الله عز وجل من جنس الكلام المعقول في الشاهد، وهو حروف منظومة وأصوات مقطعة. وهو عرض يخلقه الله سبحانه في الأجسام على وجه يسمع ويفهم معناه، ويؤدي الملك ذلك إلى الأنبياء عليهم السلام ت بحسب ما يأمر به الله عز وجل" [1].

" وهذا الفهم أوحى إليهم بالصيغة التي أثرت عنهم في نظرية خلق القرآن، التي بها يعارضون العقيدة السنية لكلام الله الأزلي غير المخلوق" [2].

ثم قالوا أين المكلف ليوجد له الأمر والنهي أزلا؟ ويسوق لنا أحمد أمين حجتهم هذه بقولهم:" إذا كان القرآن أزليا هو صفة من صفات الله، ترتب على ذلك جملة استحالات: أولها أن الأمر لا قيمة له ما لم يصادف مأمورا، فلا يصح أن تصدر: **{أقيمُوا الصّلاةَ}** إلا إذا كان هناك مأمورون بالصلاة، ولم يكن في الأزل مأمورون مخاطبون، ومحال أن يكون المعدوم مأمورا، والأمر من غير مأمو ر، بل والكلام كله من غير مكلم من أمحل ما ينسب إلى الحكيم[3]" وقد استدل المعتزلة على القول بخلق القرآن والتأسيس له والتأصيل من القرآن ذاته، ننقل جانبا مما ذكره "القاضي عبد الجبار":

قال الله تعالى : **{وَإِذْ قَال ربّك للمَلائكَة}** [4] فيكون قوله الواقع في ظرف مختصا بزمان معين، والمختص بزمان محدث. يقول الله تعالى : **{كتابٌ أُحْكمتْ آياتُهُ ثمّ فصّلتْ}** [5]، وهذا يدل على أن القرآن مركب من الآيات التي هي أجزاء متعاقبة فيكون حادثا.

قوله تعالى: **{حَتّى يسْمَع كَلاَمَ الله}** والمسموع حادث لأنه لا يكون إلا حرفا وصوتا.

---

[1]. القاضي عبد الجبار، المغني، مصدر سابق، ص 3.

[2]. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق، ص 115.

[3]. أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص 713.

[4]. سورة البقرة، الآية:30.

[5]. سورة هود، الآية: 01.

وقوله تعالى : **{إنّا أنزَلنَاهُ}** [1]. ولا إنزال. في الأزل. أ ن القرآن نص على نسخ بعض الآيات بقوله: **{ما نَنسخْ منَ آية أو نُنسهَا نَأت بخَيْر منْهَا أو مثْلهَا}**[2] ولا يتصور النسخ إلا في الحادث، لأن القديم ليس عرضة لذلك، قول الله تعالى : **{إنّا جَعلْنَه قُرْآنًا عَربيًّا }**[3] يوجب حدوثه، لأن الجعل والفعل سواء في الحقيقة. وكل ذلك وما شاكله يدل على حدوث القرآن في الحقيقة .. إلخ" [4].

والملاحظ أن المعتزلة اعتمدوا في قولهم بخلق القرآن على هذه النصوص وغيرها، وجعلوا مستندهم أيضا الحجاج العقلي.

والسؤال المطروح **ألم يكن مذهبهم هذا مأخوذ من غيرهم؟** ويقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر بصيغة أدق، **ما هو أصل القول بخلق القرآن؟**

" أول من نادى بتعطيل الصفات "الجعد" فيلزمه بالضرورة أن يقول بخلق القرآن: فالجعد أول من نادى بالتعطيل، والتعطيل اصطلاح وضعه السلف وصما للمعتزلة وسالفيهم، ومعناه الفني إنكار الصفات القديمة القائمة بالذات، فالجعد إذن من نفات الصفات، بل أول من نادى بها. وقد أداه نفي الصفة إلى القول بخلق القرآن" [5].

قال ابن الأثير: "وفي سنة أربعين ومائتين توفى القاضي أبو عبدالله أحمد بن أبي دِؤاد* في المحرم بعد ابنه أبي الوليد بعشرين يوماً، وكان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من

---

[1]. سورة الدخان، الآية: 03.

[2]. سورة البقرة، الآية: 106.

[3]. سورة، الزخرف، الآية: 03.

[4]. القاضي عبد الجبار، المغني، مصدر سابق، ص ص: 94.87.

[5]. النشار، المرجع السابق، ج 1،ص، 332.

*. **أحمد بن داود:** هو فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله القاضي، كان معروفا بالمروءة والعصبية، وله مع المعتصم أخبار، نشأفي طلب العلم وخاصة الفقه والكلام، وكان من أصحاب واصل بن عطاء، كان

مذاهب المعتزلة .وأخذ ذلك عن بشر المريسي *، وأخذه بشر من الجهم بن صفوان ، وأخذه جهم من الجعد بن درهم ، وأخذه الجعد من أبان بن سمعان ، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم وختنه ، وكان لبيد يقول بخلق القرآن " [1]، وذكر ابن كثير أيضا " أن الجعد ابن درهم هو أول من قال بخلق القرآن .. أصله من خراسان ويقال أنه من موالي بني مروان .. وكانت له دار بالقرب من الفلاسيين إلى جانب الكنيسة ..قال "ابن عساكر" وغيره: وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان بن سمعان عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم وزوج ابنته عن ابن سمعان، أخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يهودي باليمن" [2]، ويثبت لنا بهذا النص أن أصل القول يهودي، ويؤيد ابن حنبل هذا النحو أيضا بقوله: " إن أصل مقالة تعطيل الصفات ،إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين،فإنه أول من حفظ عنه أنه قالهذه المقالة في الإسلام الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها،وأخذها الجعد عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم"[3]

" وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان الخزري، وقيل الترمذي، وقد أقام ببلخ بأصبهان، وقيل بمرو، قتله نائبها سلم بن أحوز رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيرا، وأخذ بشر

=شاعرا مجيدا فصيحا، ولما ولي المعتصم الخلافة جعله قاضي القضاة، توفي سنة 240 هجرية. = ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، مصدر سابق، ص 81.

* **بشر المريسي:** بن غياث، أبو عبد الرحمن الفقيه الحنفي المتكلم، إليه تنسب الطائفة المريسية، توفي في ذي الحجة سنة 218 للهجرة، ببغداد. = المصدر نفسه، ص 278.

[1]. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، مصدر سابق، ص75.

[2]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، مصدر سابق، ص ص: 148.149.

[3]. ابن حنبل، (أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال)، **الرد على الجهمية والزنادقة** ، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين،الرياض، دار الثبات،ط1: 1424هـ2003م.ص 09.

المريسي عن الجهم، وأخذ أحمد بن أبي دؤاد عن بشر." [1] وهؤلاء هم الطائفة التي أخذت عن الجعد.

" وأما الجعد فإنه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، فتطلبه بنو أمية فهرب منهم وسكن الكوفة، فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ثم إن خالدا ابن عبد الله القسري قتل الجعد يوم عيد الأضحى بالكوفة وذلك أن خالدا خطب في الناس فقال: أيها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد ابن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا. ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ،ثم نزل فذبحه في أصل المنبر بيده."[2]

فالروايات واضحة الدلالة في أن أصل المقالة لبيد بن أعصم (اليهودي).

ولكن النشار يذهب إلى أن نسب المقالة إلى مذهب يهودي هو من قبيل العداوة لجهم، ومما جرت عليه المناظرات بين الفرق يقول:" ويبدوا أن القصة وضعت من أعداء الجهم لتبين أن أصل المذهب يهودي من اليمن، وقد كانت هذه عادة الفرق المتناظرة: أن تنسب أراء أعدائها إلى أعداء الإسلام نفسه" [3].

" فلا بد أن نبحث عن مصدر للمسألة غير إسلامي، ومعاد للإسلام ونبي الإسلام، حتى نجد يهوديا في اليمن يبتدع هذه البدعة في الإسلام ...إن البحث العلمي لا يمكن أن يأخذ بهذه الطريقة المصطنعة دون تقديم الأدلة التاريخية والعلمية. المثبتة للدعوى، ومع ذلك هناك ما ينفي الصلة بين فكرة خلق القرآن وبين اليهودية. وهو أن فكرة خلق القرآن نشأت عند مبالغتهم في الحرص على نقاوة معنى التوحيد ونفي الجسمية عن ذات الله. في حين أن

---

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، مرجع سابق ص ص: 148.149.

[2]. المصدر نفسه، ص 149.

[3]. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 330.

اليهودية تقول بأن الله حين كلم موسى تجلى له بصورة ما، فرآه وهذا مناقض كليا لنظرية القائلين بخلق القرآن" [1].

ويبرر سامي النشار موقفه بأن الجعد أراد أن ينكر ذات الفكرة اليهودية المجسمة . الآنفة . فأراد الجعد أن يناقض هذا بقوله: "إن الله لم يكلم موسى تكليما" أي لم يكلمه على تلك الصورة المجسمة التي عرفها اليهود، هذا ما أراده الجعد ولم يفهمه القسري" [2]، ويستند النشار في رفع التهمة عن الجعد بنص ذكره ابن كثير وابن الأثير بما متنه: "أن الجعد كان يتردد على وهب بن منبه وأنه كان كلما راح إلى وهب يغتسل ويقول: أجمع للعقل. وكان يسأل وهبا عن صفات الله عز وجل، فقال له وهب يوما: ويلك يا جعد أقصر المسألة، إني لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يدا ما قلنا ذلك وأن له عينا ما قلنا ذلك." [3].

" وفكرة أخرى تقول بأن قول الجهم بخلق القرآن إنما أخذه عن **الصابئة** *

والمسيحيين، إما بطريق مباشر وإما بالكنائس **الديصانية**** والمسيحية، وبأفكار **الرواقيين*****من فلاسفة اليونان" [4]، ويبين الأشعري أن القول واحد بين النصارى والجهمية :"

---

[1]. حسين مروة، النزعات المادية، ج2، مرجع سابق، ص 683.

[2].النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق،ص 330.

[3]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، مصدر سابق، ص ص: 148.149.

*__الصابئة:__هم الحرانيون، جماعة من صابئة الكلدانيين، قيل كانوا في شمال سورية. = الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، مصدر سابق، ص 359.

** __الديصانية:__ أصحاب ديصان، سمي باسم نهر ولد عليه وهو قبل ماني، والمذهبان قريب بعضهما من بعض. = المصدر نفسه، ص278.

*** __الرواقية:__ (stoicisme)، مذهب إحدى المدارس اليونانية الكبرى في العصر الهيلنستي، وسميت كذلك نسبة إلى الرواق الذي كان يعلم فيه مؤسسها زينون الكتيومي. = المعجم الفلسفي، مصدر سابق، ص 93.

[4]. حسين مروة، النزعات المادية، ج2، مرجع سابق، ص 684.

وزعمت الجهمية كما زعمت النصارى أن كلمة الله حواها بطن مريم وزادت الجهمية عليهم فزعمت أن كلام الله مخلوق حل في شجرة وكانت الشجرة حاوية له " [1].

ويذكر صاحب الملل والنحل، " أن القول بنفي صفات الباري كانت غير نضيجة وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين ازليين قديمين، قال من أثبت معنى، وصفة قديمة أثبت إلهين، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة، وانتهى نظرهم فيها إلى رد جميع الصفات" [2]ومعنى ذلك أن أصل القول بخلق القرآن إنما أخذته المعتزلة من مدارسة كتب الفلاسفة، ولا ندري من قوله الفلاسفة القدماء أم المحدثين بالنسبة إليه.

ويناقش حسين مروة هذا الاتجاه بقوله: " تاريخيا لا يصح أن يكون الجعد قد اطلع على كتب الحرانيين، ذلك أنه قتل في منتصف القرن الثامن الميلادي، العقد الثالث من القرن الثاني الهجري، وكتبهم ترجمت ما بعد منتصف القرن الثالث (أوائل القرن التاسع الميلادي). أما المصدر المسيحي فمستبعد، لأن الاتجاه العام للمعتزلة بما فيها خلق القرآن، يتجه إلى تنزيه الله عن التعدد وعن الحلول بكل شكل من أشكاله، وعن التجسد بكل وجه من وجوهه، في حين عرفت المسيحية بالتثليث وقالت بحلول الله في المسيح." [3]

وقد أورد سامي النشار عن ابن النديم رواية أخرى عن الجعد، " حيث يعتبره . أي ابن النديم . مانويا. وهذه الرواية الغريبة انفرد بها ابن نديم ويبدو فيها تحامل ابن النديم الشيعي على الجعد" [4]،" وليس لهذه الرواية ما يسندها تاريخيا ،فضلا عن تهافتها فكريا، لأنه ليس من شبه إطلاقا بين القول بخلق القرآن الصادر عن مبدأ التوحيد وبين المانوية القائمة على

---

[1]. الأشعري، الإبانة، مصدر سابق، ص 22.

[2]. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص 40.

[3]. حسين مروة، النزعات المادية، ج2، مرجع سابق، ص 685.

[4]ـ النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 330.

ثنائية الآلهةولمثل السبب الذي استبعدنا به كون المانوية مصدرا لمشكلة خلق القرآن، نستبعد كون الديصانية مصدرا لها كذلك، فالمانوية والديصانية تقومان على أصل واحد وهو الثنوية." [1]

" وقد اتهم الجعد ابن درهم أيضا بأنه تأثر .. بالصابئة والمسيحيين عند ابن تيمية وغيره من المفكرين، وأن الجهم بن صفوان أخذ عن الجعد، وبالتالي قد تأثر بكل هذه المؤثرات الأجنبية، ونحن نعلم أن الرواقية كانت منتشرة لدى الكنائس الديصانية والمسيحية، فهل حدث تلاقي في الأفكار؟ ليس هناك ما يثبت هذا على الإطلاق في هذا العصر الأو ل، وليس هناك ما يصل جبرية الجهم بجبرية الرواقية. وليس ثمة مشابهة بين فكرتي خلق القرآن ونفي الصفات، وبين أية عقيدة رواقية، إن محاولة تحقيق الصلات وتوكيدها من الصعوبة بمكان في ذلك العهد المبكر" [2]

فكيف أخذ الجهم عن الجعد؟

" تذكر المصادر التاريخية المتعددة أن الجعد أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، وأن هذا القول قد أوغر صدور الأمويين عليه فطلبوه، فهرب من دمشق وذهب إلى الكوفة وعاش بها، فلقيه فيها الجهم ابن صفوان وأخذ هذا القول عنه." [3].

" ولا يخفى أن الجهم بن صفوان وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء، منها قوله لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة بها خلقه، لأن ذلك يقتضي تشبيها .. وهو موافق لهم في نفي الرؤية وإثبات خلق الكلام" [4]،" ويعتبر الجهم ر أس الجهمية ومنهم فرقة تسمى المخلوقية، زعموا أن القرآن مخلوق، وعن الجهم أخذ بشر

---

[1]. حسين مروة، النزعات المادية، ج2، مرجع سابق ص ص: 671ـ685.

[2]ـ النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص408.

[3]ـ النشار، المرجع السابق، ص 330.

[4]. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص 74.

المريسي كما ثبت بالنصوص، وتنسب له فرقة المريسية ،الذين قالوا: أكثر صفات الله مخلوقة" [1].

" تابع المعتزلة الجهم بن صفوان في مقالته" [2]،" ثم تبنى شيوخ المعتزلة هذه المقالة ودعوا إليها، بل واختلفوا فيما بينهم في بعض المباحث فيها" [3]. يقول القاضي عبد الجبار: "والذي يذهب إليه شيوخنا أن كلام الله عز وجل من جنس الكلام المعقول في الشاهد، وهو حروف منظومة وأصوات مقطعة وهو عرض يخلقه الله سبحانه في الأجسام على وجه يسمع ويفهم معناه ويؤدي الملك ذلك إلى الأنبياء .. ولا خلاف بين جميع أهل العدل*

في أن القرآن مخلوق محدث معقول لم يكن ثم كان، وأنه غير الله عز وجل، وأنه أحدث بحسب مصالح العباد."[4]

ويرى فهمي جدعان أن الأصل في قول المعتزلة بخلق القرآن قولهم بالعدل، ومعلوم أن العدل أصل من أصول عقيدتهم التي لا تنفك عن بعضها البعض، ويشرح فهمي جدعان ذلك بقوله: "أما مبدأ العدل وإثبات الخلق للعبد فقد ألجأ إليه النقد الخارجي وبخاصة النقد اللاهوتي المسيحي .. إذ أخذ عن الديانة المحمدية تناقضها المنطقي بإقرارها في الآن نفسه ومن الجهة نفسها، بالجبر وبالتكليف الخاضع للجزاء الأخلاقي، فاقتضى ذلك أن يقول القدرية الأوائل، ومن بعدهم المعتزلة، بمبدأ العدل الإلهي، وليس يخفى على الباحث المدقق أن مسألة خلق القرآن . وهي عند المعتزلة فرع لمبدأ العدل لا التوحيد . قد جاءتلتدفع الإحراج

---

[1]. ابن الجوزي، تلبيس إبليس، مصدر سابق، ص 20.

[2]. محمد العبده و طارق عبد الحليم، **المعتزلة بين القديم والحديث** ، برمنجهام، دار الأرقم، ط 1: 1408هـ1987م.ص 50.

[3]. الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج2، مصدر سابق، ص ص: 267. 270.

*. هم المعتزلة، وسموا بذلك لأن العدل والتوحيد أحد مبادئ عقيدتهم الخمسة.

[4]. القاضي عبد الجبار، المغني، مصدر سابق، ص 03.

المسيحي الذي يريد أن يلجئ المسلمين إلى القول بألوهية المسيح." [1] وهذا الرأي يرجع النشأة إلى ضرورة ألجأت المعتزلة إلى القول بخلق القرآن ردا على المسيحيين. ولكن القول بخلق القرآن فرع عن مبدأ التوحيد عندهم، ذلك أن الكلام في أصله متعلق بذات الله تعالى. وقد اعتقدوا بنفي صفة الكلام عنه جل وعلا.

وذهب بعضهم إلى أن أصل المقولة يرجع إلى أيام النبي صلى الله عليه وسلم أن أصله من المشركين، " ويذكو أن من بدأ بالقول بخلق القرآن هو الوليد بن المغيرة،قال أبو سعيد رحمه الله :فمن ذلك ما أخبر الله تعالى في كتابه عن زعيم هؤلاء الأكبر وإمامهم الأكفر الذي ادعى أولا أنه مخلوق .وهو الوحيد واسمه الوليد ابن المغيرة فأخبر الله عن الكافر دعواه به ثم أنكر عليه دعواه وردها عليه ووعده النار أن ادعى أن قول الله تعالى قول البشروقوله :"إن هذا إلا قول البشر"وقول هؤلاء الجهمية:(هو مخلوق) واحد لا فرق بينهما فبئس التابع وبئس المتبوع" [2].

ولكن لماذا لم يكن لهذه المقالة صيت وشهرة إلا في زمن بني العباس؟

ذكر صاحب البداية والنهاية في أحداث سنة إحدى وأربعين ومائتين: «أ ن المأمون* قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة وأزاغوه عن طريق الحق إلى الباطل، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفي الصفات عن الله عز وجل. قال البيهقي: ولم يكن في الخلفاء قبله من بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب السلف ومنهاجهم" [3]، " فقد كان القول بأن القرآن كلام

---

[1]. فهمي جدعان، المحنة، مرجع سابق، ص 21.

[2]. الدارمي، (عثمان بن سعيد الدارمي)، **الرد على الجهمية** ، قدم له وخرج أحاديثه بدر البدر. الكويت ، الدار السلفية، ط1: 1405هـ 1985م، ص159 م.

*__المأمون:__ عبد الله، أبو العباس، ابن الرشيد، ولد سنة (170هـ)، ليلة الجمعة، قرأ العلم في صغره، سمع الحديث من أبيه وغيره، برع في الفقه والعربية، وأيام الناس، ولما كبر عني بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها، وكان فصيحا مفوها. = السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص ص:262243

[3]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، مصدر سابق، ص283.

الله، قاعدة وقانونا، وكان هذا القانون محفوظا زمن الرشيد .. فقد قال يوما: بلغني أن بشرا المريسي، زعم أن القرآن مخلوق، ولله علي إن أظفرني به لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحدا من قط" [1].وهذا دليل على أن المقولة كانت موجودة ولكن لم يكن لها صدى وصيت زمن الخليفة هارون الرشيد، وحتى زمن الأمين *، وقد ذكر ابن الجوزي " أن المسعودي قاضي بغداد، قال: سمعت هارون الرشيد، يقول: بلغني أن بشرا بن غياث يقول: القرآن مخلوق، ولله عليّ لئن أظفرني الله به لأقتلنّه قتلة ما قتلتها أحدا، قال أحمد: فكان بشر متواريا أيام هارون نحوا من عشرين سنة حتى مات هارون، فظهر ودعا إلى الضلالة وكان من المحنة ما كان. قلت: فلما توفي الرشيد كان الأمر كذلك في زمن الأمين" [2]،" فلما ولي المأمون الخلافة اجتمع به هؤلاء يقصد المعتزلة . فحملوه على ذلك وزينوا له ،واتفق خروجه إلى طرسوس لغزو الروم فكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعوا الناس إلى القول بخلق القرآن" [3]، وهناك رواية أخرى تبين ابتداء نشر هذه المقولة وإذاعتها بين الناس من قبل الخليفة المأمون، مفادها أن المأمون قال:" لولا مكان يزيد بن هارون ** ،لأظهرت أن القرآن مخلوق، .. فأرسل إليه من يستعلم رده في المسألة، ويخبره بنية المأمون إظهار خلق القرآن، فقال يزيد: كذبت على أمير المؤمنين، أمير المؤمنين لا يحمل الناس على ما لا

---

[1]. ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، مصدر سابق، ص 416.

* **الأمين:** محمد، أبو عبد الله، ابن الرشيد، ولي الخلافة بعهد من أبيه، وكان أحسن الشباب صورة، أبيض طويلا جميلا، ذا قوة مفرطة، وبطش وشجاعة، وله فصاحة وبلاغة .. ولكن كان سيئ التدبير كثير التبذير، ضعيف الرأي أرعن لايصلح للإمارة. كان قتله في محرم سنة(198هـ) = السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص 236

[2]. ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، مصدر سابق، ص 417.

[3]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، مصدر سابق، ص283.

** **يزيد بن هارون:**أبو خالد، مولى لبني سليم، كان ثقة كثير الحديث، توفي وهو ابن سبع أو ثمان وثمانين سنة، في خلافة المأمون. = ابن سعد، كتاب الطبقات، ج9، مصدر سابق، ص316.

يعرفونه، فإن كنت صادقا فاقعد إلى المجلس، فإذا اجتمع الناس فقل. قال :فلما أن كان الغد اجتمع الناس، فقام فقال: يا أبا خالد . رضي الله عنك . إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ،ويقول لك :إني أردت أن أظهر أن القرآن مخلوق ،فما عندك في ذلك؟ قال: كذبت على أمير المؤمنين ،أمير المؤمنين لا يحمل الناس على مالا يعرفونه، وما لم يقل به أحد. قال: فقدم فقال: يا أمير المؤمنين كنت أعلم، كان من القصة كيت وكيت، فقال له: ويحك، لعب بك" [1].

وكانت هذه بداية الشرارة الأولى لمحنة يذكرها التاريخ إلى اليوم، نوردها في حينها في مبحث التوظيف السياسي لمقولة خلق القرآن.

[1]. ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، مصدر سابق، ص ص: 417.418.

الفصل الثاني

التوظيف السياسي للمقولات الكلامية

إن جل الذين حكموا سعوا لتثبيت أسس حكمهم، ليخلص لهم البقاء آمرين وناهين في سلطانهم، وقد عرى التاريخ سياسة هؤلاء، على صعيد ممارساتهم، ولكي يوطن الحاكم أركان ملكه، ويوطد عرى حكمه، يبحث عن وسائل توفر له الحصانة في منصبه، وتضمن له الحماية في إيوانه. لا نتحدث هنا عن الحماية التقليدية كحماية الحرس بالسلاح، ولكن نتحدث عن **الإيديولوجية** عن الأفكار، التي تخمّر النهى وتبلد الفكر، وتوجه الرأي العام، وتبعد . في نظر من يحكم . وساوس المناوئين، وأراجيف الناقدين، وتؤسس لثقافة معينة تنضوي تحت ظلالها الدهماء وتهيم في فلكها عقول السوقة حيرى، المهم هنا هو بقاء السلطة الأبوية للحاكم حتى وإن كان الأب قاسيا على أولاده، بل ظالما لهم غير عادل بينهم.إن ظهور فكرة تعاكس هذه الإيديولوجية هزّات تزلزل أرض الإيوان، وتقوض الأركان. كانت الغلبة على كرسي الحكم لبني أمية بعد خلافة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وقلب نظام الحكم ملكا، بعد أن كان شوريا، ملكا آل إلى صاحبه . كما يرى حسن إبراهيم حسن . «بقوة السيف والسياسة والمكايد .. ولما ولّى معاوية (رضي الله عنه) ابنه يزيد العهد ظهر نظام التوريث، وانتقلت الدولة من ذلك النظام الذي ساد عهد الخلفاء الراشدين إلى النظام الذي سار عليه الأمويون في حكم الدولة الإسلامية، أو بعبارة أخرى من نظام الخلافة، إلى النظام الملكي الذي يقوم على أساس التوريث ويستند إلى السياسة أولا وإلى الدين ثانيا. وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسة منها إلى الدين واستحالت بذلك إلى ملك." (1) وهذا كان شيئا جديدا على الأمة آنذاك. ولكي تتعايش معه وتستقبله عقول الناس وأفئدتهم، وجب على بني أمية أن يجدوا المسوغات التي تجوز فعلهم، ويحدثوا الوسائل التي تسند ملكهم.

[1]. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج1، مرجع سابق، ص357.

المبحث الأول: التوظيف السياسي لمقولتي الجبر و الاختيار

إن أهم وسيلة جرى عليها اختيار بني أمية هي **استعمال الدين** ، في مطامعهم ومطامحهم، ليبرروا أخذهم الملك، ونرى أن التجويز والتسويغ الذي سيعمد إليه خلفاء بني أمية لا يخرج عن العقيدة، بوجه أخص **عقيدة الجبر**.

يقول "الجابري" في ذلك: "لأن الدين مقدس عند الناس، وهم إنما يطيعون أمر الله وكلمته، انطلاقا من التوحيد الراسخ في قلوبهم . الإذعان إلى تعاليم الدين . وعندما يكون الاعتقاد في أن " لا فاعل إلا الله" جزء من المذهب الديني"(1).

بناء على ذلك **ما حقيقة توظيف سلطة بني أمية لعقيدة الجبر؟** وفي المقابل دعت بعض الفرق والشخصيات إلى القول بعقيدة **الحرية(الاختيار)، فهل يعتبر ذلك معارضة وظفت فيه هذه العقيدة توظيفا سياسيا ضد حكم بني أمية؟**

قبل محاولة الإجابة عن هذين التساؤلين، وجب في البداية أن نعرف معنى الجبر والحرية.

الجبر " لغة: أجبره: أكرهه. الإجبار في الحكم، يقال: أجبر القاضي الرجل على الحكم إذا أكرهه. قال أبو الهيثم: والجبرية الذين يقولون أجبر الله العباد على الذنوب أي أكرههم(2).

واصطلاحا:" هو إسناد فعل العبد إلى الله تعالى"(3).

الحرية:"(liberté)هي القدرة على تحقيق الفعل دون الخضوع لمؤثر خارجي، وإنما تصدر الأفعال عن المرء نفسه، بحيث يشعر أن الفعل صادر عن إرادته" (4).

الاختيار: "هو الاصطفاء وكذلك التخيّر، وتخير الشيء: اختاره. وأنت بالخيار أي اختر ما شئت. خيرته بين شيئين أي فوضت إليه الخيار"(5).

---

1. الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**،مرجع سابق، ص 79.
2. ابن منظور، **لسان العرب**، ج 4، مصدر سابق، ص 116.
3. الجرجاني،معجم التعريفات، مصدر سابق،ص 66.
4. المعجم الفلسفي، مصدر سابق، ص 71.
5. ابن منظور، لسان العرب، ج4، مصدر سابق، ص266.

المبحث الأول: التوظيف السياسي لمقولتي الجبر و الاختيار

الظاهر أن بني أمية قامو ا بتوظيف **الجبر** لصالح استمرار حكمهم، وتوارث هذا الحكم تحت شعار الجبرية وسيادة قدر الله" فقد روي عن معاوية (رضي الله عنه) أنه قال في بعض خطبه: لو لم يرني ربي أهلاً لهذا الأمر ما تركني وإياه، ولو كره الله ما نحن فيه لغيره" وهذا صريح الجبر، وكان يقول: "أنا عامل من عمال الله أعطى ما أعطى الله، وأمنع ما منعه الله "(1)،ومعنى هذا أن الخلافة كانت بأمر الله حتى وإن خالفت هوى المحكومين، والمنع والعطاء هو من الله أيضا وما الحاكم إلا منفذ لذلك، يضيف الجابري:" ولم يكتف معاوية والخلفاء الأمويون جميعا من بعده بالقول أن الخلافة إنما ساقها الله إليهم ، بل لقد فسروا بها تلك الأعمال التي اقترفوها والتي لا يرض عنها الله ولا رسوله ولا عباده الصالحون .. نعم إن هاهنا توظيفا للدين في السياسة."

"إذا كانت مسألة القدر . الجبر والاختيار. هي المسألة الكلامية الأولى في العصر الأموي، فإن ذلك لم يكن صدفة بل لأن الأمويين اتخذوا من الجبر إيديولوجيا لهم."(2)

وحتى تؤتي فكرة الجبر أكلها لدى بني أمية فترسخ ملكهم أكثر، كان لابد أن ترسخ هذه الفكرة أو بالأحرى الإيديولوجية في العامة، ولا سبيل لبني أمية غير قناة إعلامية تذيع هذه العقيدة التي تتبناها السلطة على رؤوس الأشهاد، هذه القناة هي الشعراء، كما يذكر غولد تسيهير: "كان حسناً لهم أن تتأصل هذه الأفكار في الشعب حتى كانوا يسمعون وهم راضون شعراءهم يمجدونهم بنعوت تجعل سيادتهم وسلطانهم قدراً مقدراً من الله،(3)

---

1. ابن المرتضى، المنية والأمل، مصدر سابق، ص 87.
2. الجابري، **العقل السياسي العربي**،مرجع سابق، ص ص: 261.301.
3. غولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق،ص 86.

وأن القضاء الأزلي لا محيد عنه، وعقلية الرعية الهادئة المطيعة يجب أن تعتبر أمير المؤمنين وما يجيء عنه من آلام قدراً من الله، ولا يمكن لأحد أن يتهم ما يصدر عنه أو يشكو منه."(1)

ولا نقلل من أهمية الشعر ومبلغ أثره على العقلية العربية، خاصة إذا كان الشاعر مجيدا، ومن أبناء البلاط الملكي. يجزل له في العطاء، ويمد له من السلطة جسور الوعود ومعابر الوفاء. هذا ما يفعله الإعلام من جانب.

ومن جانب ثاني اتبع بنوا أمية سياسة الإلهاء بالملاهي عن القضية الكبرى (وهي اغتصاب الحكم)، حتى يتفرق الناس عن المطالبين به . المعارضة . ثم تنفرد السلطة بهم.

" ونرى هذا التأصل قد بدأ في **المواطن** الحساسة فعلا يقوم على استراتيجيتي ن اثنتين: نشر مفهوم الجبر كعقيدة بين الأتباع والمعارضين، وثانيها إغراق مجتمع المدينة خاصة بكل وسائل اللهو والمجون، لإلهاء شباب المدينة وتفريقهم عن متزعمي المعارضة السياسية والعسكرية، ولعل في هذا ما يفسر ازدهار أدب الغزل المكشوف إبان هذا الوقت في ذلك المجتمع." (2).

إن الأسرة الحاكمة إذ اتبعت سبيل حشو العقول بالإيديولوجية الخادمة لسياستها، وبالشعر لتسوق هذه الإيديولوجية، فقد بذلت المال أيضا، لتستميل إليها عامة الأعيان، يشير النشار إلى أن:" **البصرة** كانت أموية، كما يقولون تدين بالولاء لبني أمية، حين أضفى بنوا أمية المال وأغدقوه على كثير من رجالها، وعاش هؤلاء الأتباع عيشة الترف الخيالي، وشاعت الفاحشة بين هؤلاء وانتشرت الحياة الرخية في قصور البصرة .. وشاعت الفكرة أنه قدر علينا

---

1. المرجع نفسه، ص 87.

2. عبد المجيد الصغير، **الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام** ،بيروت، دار المنتخب العربي، ط1: 1415هـ1494م، ص 47.

ولا محيص" (1)، كان هذا ديدن الخلافة الأموية مع الجبر، حتى إذا أخذت هذه العقيدة زخرفها وازيّنت، جاء الأمر السلطاني بتعميمها في **عواصم العالم الإسلامي** والدعوة إليها جهارا. فمن المدينة ، والبصرة، حط الجبر رحاله بالشام. يقو ل النشار:"فقد أعلن قراء **الشام** (فكرة الجبر المطلق)وأنها هي التفسير الوحيد للنصوص القرآنية، فعلوا هذا إرضاء للخليفة المغتصب ،وأمر الخليفة عماله في مختلف بقاع العالم الإسلامي بنشر الفكرة، وأخذ الناس بها، فليؤمن بها الكبير قسرا ،ويرضعها الصغير ويحبوا بها وعليها"(2) ، لقد رأى بنوا أمية أن إفشاء إيديولوجية الجبر ينسي الناس اغتصابهم للحكم، ويسخر لهم رقاب الناس طاعة وإذعانا، لأنهم ظل الله في الأرض يحكمون بحكمه ويأمرون الناس بأمره، هذا دستور بني أمية الذي يحقق لهم الأمن في ملكهم، والأمان لأولادهم من بعدهم. وقد وجدنا غير نص تاريخي يفيد ما قلنا، منه قول الطبري: "وسار الخلفاء الأمويون وولاتهم على هذا النهج يكرسون الجبر تكريسا، إن معاوية لما استعمل زيادا ابن أبيه على **البصرة وخراسان وسجستان** والفسق بالبصرة ظاهر، فاش، فخطب خطبة بتراء، لم يحمد الله فيها ومما جاء فيها: "..أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا."(3)

ولم يكن الترويج لإيديولوجية الجبر محصورا في إغراق الفكر، وإغداق المال، وزخرفة خطب الحكام الأمويين، ورسائلهم إلى الكافة بل لقد جندت **وسائل إعلام** ذلك العصر في ترسيخ ألقاب ذات دلالة جبرية على ملوك بني أمية، يشير "الجابري" إلى بعضها بقوله:" وقد تكفي في الإشارة هنا إلى الألقاب ذات المضمون الجبري التي كانوا يخلعونها على ملوكهم

---

1. النشار ،نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 315.
2. المرجع نفسه، ص 314.
3. الطبري، تاريخ الملوك، ج7، مصدر سابق، ص ص:220.219.

مثل: "خليفة الله في الأرض" و"أمين الله" و"الإمام المصطفى" .. وهكذا كانت معظم هذه الألقاب تكرس الجبر تكريسا على لسان خطباء الجمعة والشعراء والقصاص"(1).

وتذكر المصادر أيضا أن "يزيد" * لما قدم دمشق بعد موت أبيه "معاوية" رضي الله عنه، كتب إلى خالد بن الحكم وهو عامل **المدينة:** "أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كان عبدا استخلفه الله على العباد، ومكن له في البلاد، وكان من حادث قضاء الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه فيه ما سبق في الأولين والآخرين."(2)، ومعلوم أن هذا الكتاب . وهو يمثل طلب بيعة يزيد سيقرؤه الوالي على رؤوس الأشهاد. من عامة الناس وأعيانهم. ويذيع على مسامعهم أن خلافة يزيد ستكون بأمر والله وقدره كما كانت خلافة أبيه.

فقد كانوا يعقدون الولاية لأولادهم من بعدهم يتوارثونها ابنا عن أب عن جد، على أساس عقيدة الجبر التي لا مناص منها، وأن اختيار الخليفة لولي عهده إنما هو اختيار الله الذي لا دخل ولا يد للخليفة فيه من شيء، ومن ذلك عقد الوليد بن يزيد لابنيه الحكم وعثمان البيعة من بعده .. وكتب بذلك إلى الأمصار كتابا أورده "الطبري"، ومما جاء فيه: "فاجمع لقراءة كتاب أمير المؤمنين الناس، ومرهم فليحشدوا له .. فولى أمير المؤمنين ذلك "الحكم" ابن أمير المؤمنين، و"عثمان" ابن أمير المؤمنين من بعده، وهما ممن يرجوا أمير المؤمنين **أن يكون الله خلقه لذلك وصاغه** .. نسأل الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن

---

1. الجابري، العقل السياسي، مرجع سابق، ص 302.

* **يزيد بن معاوية :** (م 26هـ 64هـ) ابن صخر ابن أبي سفيان، بويع بالخلافة بعد أبيه بعهد منه، كان كثير اللحم عظيم الجسم، كثير الشعر، وكان في حداثته صاحب شراب. = ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج28، مصدر سابق، ص 18.

2. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج2، صححه محمد محمود الرافعي، مصر، مطبعة النيل،1322هـ1904م، (د، ط)، ص ص: 322/321.

الرحيم أن يبارك لأمير المؤمنين ولكم في **الذي قضى** به على لسانه من ذلك **وقدر منه** ..فإن **ذلك بيده ولا يملكه إلا هو**" (1).

"من هنا يجب أن ننظر إلى إيديولوجيا الجبر التي كرسها الأمويون لا على أنها كذب أو نفاق بل على أنها استلاب حقيقي، على أنها مظهر من مظاهر وعي مستلب."(2)

وهكذا فقد أمست فكرة الحكم تحت عقيدة الجبر وهي تنتقل من البصرة إلى الشام إلى الكوفة عواصم الدولة آنذاك. راسخة في عقول العامة من الناس، وهل **معنى ذلك أن يسلم لهم خواص الناس وأئمتهم؟**

إن الناس لا يدينون دائما بدين ملوكهم، فبعضهم تحت طائلة التزلف يظهر المولاة ولكنه غير مؤمن بأفكار السلطة، وبعضهم يظهر ولاءه خوفا منها، وبعضهم يعارض ساكتا، وآخرون يجهرون بمعارضتهم. هذا الصنف الأخير هو الذي تخشاه السلطة، بل تحسب له ألف حساب، خاصة إذا قويت حجته والتف حوله الناس، وجب عليها حينئذ أن تقسم ظهره وتثير الناس ضده. لقد دعا بنوا أمية إلى فكرة الجبر وأرغموا الناس عليها ولكن ظهر من ينادي بضدها، بالاختيار والحرية، يعارضون بذلك السلطة الحاكمة حتى تعترف بأن ما تقع فيه من ظلم هو بملء إرادتها، وليست مجبورة في شيء. " لقد جعل معاوية ورجاله وخلفاؤه من بعده من الجبر عقيدة تبرر سياستهم وتسقط المسؤولية عنهم، فكان لابد أن يثير ذلك ردود فعل فكرية من أولئك الذين اختاروا المعارضة السياسية .. هي التي كانت منطلق" **الحركة التنويرية**" التي طرحت في وقت مبكر مسألة حرية الاختيار وبالتالي المسؤولي ة، لقد أطلق الأمويون والمناصرون لهم على هذه الحركة اسم "القدرية"(من القدر بمعنى القدرة،

---

[1]. الطبري، تاريخ الملوك، مصدر سابق، ج7، ص ص:224.219.

[2]. الجابري، العقل السياسي العربي، مرجع سابق، ص 260.

وليس بمعنى الجبر)، لكونهم قالوا بقدرة الإنسان على "خلق أفعاله"، وبالتالي تحميله مسؤولية ما يفعل. وهذا ما وجه إلى الأمويين بصفة خاصة."(1)

"وقد ظن الأمويون أنهم حين ولاّهم الناس في الشام أنهم أخضعوا العالم الإسلامي بقوة جيش الشام، وأنهم أذلوا أعناق المسلمين به. فذلت، باسم الجبر الإلهي "وأنه قدر على الناس أزلا " أنهم خاضعون لهم محكمون بأمرهم.. فظهر أصحاب مذهب الإرادة الحرة ينكرون عليهم فكرة الجبر المطلق وينفون أشد النفي أن الإنسان والمجتمع كله خاضع لقوة خارجية عمياء، عليه أن يخضع لها أو يستجيب لكل أوامرها استجابة مطلقة" (2)، إن الوقوع تحت طائلة الجبر يكبل الإرادة الفكرية والعملية لدى الناس. بل يحبس المبادرة والإبداع، لأن التفكير مقتصر فقط على الأسرة الحاكمة، ولا يسرها أبدا بروز عقل يفكر

لأنه خطر محدق بها، يقول جولد تسيهير:"كما أن الشخصيات صاحبة السلطان

لم تجد في العادة أي لذة أو سرور في أن يفكر الجمهور تفكيرا عقليا. ولكن كان يوجد في ذلك كله، باعث أكثر عمقا جعل الأمويين يلمحون في ترك عقيدة الجبر خطرا، ليس على الإيمان بل على سياستهم الخاصة" (3).

من هنا إذن، من حرية الإرادة السياسية وحرية التفكير العقلي، صدحت المعارضة لبني أمية.

لم تكن في رأي النشار" حركة مذهب الإرادة الحرة . القدرية الأوائل . إلا معارضة سياسية لبني أمية، استند أصحابها فيه إلى العقل وبه فسروا النصوص."4

---

[1]. الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مرجع سابق، ص 80.

[2]. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص ص: 314.315.

[3]. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق، ص 97.

[4]ـ النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 315.

وبين هذا وذاك، بين السلطة والمعارضة هناك طرف ثالث في القضية وهم العامة ، هل أثر بنوا أمية فيهم؟ أم أن شخصيات المعارضة كانت تستميل إليها الناس بأفكارها ومواقفها؟ سؤال ينبغي أن نطرحه في خضم السجال بين السلطة والمعارضة، بنو أمية دعاة الجبر ومروجوه، والقدرية دعاة الاختيار والحرية.

" لقد كان معبد الجهني وغيلان الدمشقي من رواد المعارضة الفكرية لبني أمية التي حملت الأمويين مسؤولية أعمالهم وما يترتب عنها من جزاء، "كما تذكر المصادر أن الحسن البصري كان على رأس هذه المعارضة الفكرية التي استندت إلى الدين " (1)، وقد أوردنا موقفه قبل هذا حينما سأله عطاء بن يسار ومعبد الجهني، عن جبرية الأمويين. وقولهم:" إنما تجري أعمالنا بقدر الله"، عالم كالإمام البصري له وزنه بين العامة وله رمزيّه، " كان يمثل قطبا تهوي إليه أفئدة العامة والخاصة، كان رمزا من الرموز التي تجمع بين العلم والنزاهة والصراحة والاستقامة."(2)، هذه الرمزية إذا كانت في المعارضة، فهي تشكل خطرا على إيديولوجية الجبر، "ولا شك أنه كان يقرر حرية الإرادة والاختيار وثبوت المسؤولية الدينية والأخلاقية، في دروسه الدينية وبالتالي بيان فساد القول بالجبر."(3).

"وبنو أمية كانوا يعلمون تماما أن أسرتهم أو (دولتهم) كانت غير محتملة من الزهاد، أي من هؤلاء الذين يملكون قلوب العامة بسبب طهارة قلوبهم. وإنهم لم يكونوا يجهلون أنهم في رأي كثير من رعاياهم مختلسون وصلوا إلى السلطان بوسائل قهرية شديدة، وأعداء لآل النبي، وقتلة لأشخاص مقدسين، ومنتهكون للأماكن المقدسة الطاهرة."**(4)**

---

[1]. طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، ج2، مصدر سابق، ص 144.

[2].الجابري، العقل السياسي، مرجع سابق، ص 308.

[3]. الجابري، العقل الأخلاقي، مرجع سابق، ص 82.

[4]. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق، ص 97.

" لقد كان الحسن البصري يمثل المعارضة السياسية التي كانت تبحث عن منزلة بين المنزلتين: منزلة الدولة الأموية الظالمة المكرسة لإيديولوجية الجبر والاستسلام للأمر الواقع، ومنزلة الخوارج الحاملين لإيديولوجية التكفير .. المنزلة التي تبحث عنها القوى الوسطى داخل الأغلبية صانعة التاريخ" (1)."رغم اتهام الشيعة له بأنه كان لسان بني أمية، بل كانوا يرون بأنه لولا سيف الحجاج ولسان الحسن ما قام لبني مروان أمر في الدنيا"(2)

وقد كان طبيعيا أن يثير موقف كموقف الحسن البصري، الرجل الذي يحظى باحترام الجميع، قلق الملوك الأمويين، وفي هذا الموضوع تحتفظ لنا المصادر برسالة استفسارية لا تخلوا من تهديد. بعثها الخليفة عبد الملك بن مروان * إلى الحسن البصري، يعبر فيها عن قلقه عما يبلغه عنه من كلام حول القدر، ويطلب منه توضيح موقفه، وذكر مرجعيته وسنده في هذا القول، زاعما أنه لم يسمع في هذا الكلام مجادلا ولا ناطقا قبله، مما يعني أن القول بحرية الإرادة والمسؤولية بدعة**" إن رسالة من هذا القبيل لا تبين قلق ابن مروان فحسب،

---

[1].الجابري، العقل السياسي، مرجع سابق، ص 308.

[2]. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 315.

*. **عبد الملك بن مروان** : أبو الوليد، بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، ولد سنة 26هجرية، استخلف سنة (73هـ) مات بدمشق يوم الخميس، نصف شوال سنة 86هجرية، وله ستون سنة. = ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ج7، مصدر سابق، ص 221.

. والمشهور أن عبد الملك كاتبه قائلا:" ..فقد بلغ أمير المؤمنين عنك قول في وصف القدر لم يبلغه مثله عن أحد ممن مضى ولا نعلم أحدا تكلم به ممن أدركنا من الصحابة رضي الله عنهم، كالذي بلغ أمير المؤمنين عنك. وقد كان أمير المؤمنين يعلم فيك صلاحا في حالك وفضلا في دينك ودراية للفقه وطلبا له وحرصا عليه، ثم أنكر أمير المؤمنين هذا القول من قولك، فاكتب إلى أمير المؤمنين بمذهبك والذي به تأخذ: أعن أحد من أصحاب رسول الله؟ أم عن رأي رأيته أم عن أمر يعرف تصديقه في القرآن؟ فإنا لم نسمع في هذا الكلام مجادلا ولا ناطقا قبلك، فحصل لأمير المؤمنين رأيك في ذلك وأوضحه."= الحسن البصري وآخرون،رسائل العدل والتوحيد** ، تحقيق، د. محمد عمارة،مصر،القاهرة، دار الشروق، ط 2: 1408هـ1988م، ص 111.

بل تشير إلى تهديد ووعيد باديين: «ثم أنكر أمير المؤمنين هذا القول منك" أو قوله:" فإنا لم نسمع في هذا الكلام مجادلا ولا ناطقا قبلك". إن النبرة الجبرية طاغية في الرسالة، تدعوا الحسن البصري إلى القول بمذهب السلطان، والتعجيل بالإذعان في قول ابن مروان:" فحصل لأمير المؤمنين رأيك في ذلك وأوضحه".

يعلق الجابري على رسالة الخليفة عبد الملك فيقول: "هذه رسالة شهادة تاريخية ثمينة تؤكد أن أول من بدأ في تشييد موقف إيديولوجي مضاد لإيديولوجية الجبر، قوامه القول بالقدر، هو الحسن البصري"(1)

.فأجابه الحسن البصري برسالة مطولة *يبين له فيها أن الأمور تجري باختيار الإنسان، وأن الهدى من الله والضلال من العباد، وأن الله لم يجعل الأمور حتما عليهم. مستدلا في ذلك بآي القرآن.

ولكن "الشهرستاني" يرى أنها رسالة نسبت للحسن البصري، يقول:" ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى عبد الملك بن مروان، وقد سأله عن القول بالقدر والجبر، فأجابه بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من الكتاب، ودلائل من العقل، ولعلها

---

[1]. الجابري، العقل السياسي العربي، مرجع سابق، ص 308.

*. مما ورد فيها: " إنما أحدثنا الكلام فيه (القدر) من حيث أحدث الناس الفكرة له، فلما أحدث المحدثون في دينهم ما أحدثوا، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات ويحذرون به من المهلكات..إن الله لم يجعل الأمور حتما على العباد..فالسادة والكبراء هم الذين قدموا لهم الكفر، وأضلوهم عن السبيل بعد أن كانوا عليها، . .فقل يا أمير المؤمنين كما قال الله: فرعون الذي أضل قومه ولا تخالف الله في قوله.. ولا تجعل من الله إلا ما رضي لنفسه،فالهدى من الله والضلال من العباد."= القاضي عبد الجبار، (عماد الدين عبد الجبار بن أحمد)،**طبقات المعتزلة**، تحقيق فؤاد سيد، تونس، الدر التونسية للنشر،(د،ط) (د،ت)، ص212،أيضا: الحسن البصري، رسائل العدل والتوحيد، مصدر سابق ص ص: 112. 117.

لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره وشره من الله تعالى"(1)

وينسبها محمد عمارة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري بقوله:" وهو أقدم مفكر إسلامي حفظت لنا من آثاره رسالة أفردها لقضية الحرية الإنسانية والاختيار، وكتبها فيما يشبه الصراع الفكري مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان."(2)

فهل هذا يعني أن الحسن لم يكن قدريا؟ أم أنه كان جبريا؟

والظاهر أن الحسن البصري كان يقول بالقدر ثم رجع عن ذلك. يقول طاش كبرى زادة: " كان تكلم في شيء من القدر فرجع عنه. ثم أنكر عليه أشد الإنكار ."(3) وهناك ترجيح آخر يذهب إليه النشار بقوله:" إن الحسن البصري إن لم يكن أمويا في أعماقه، إنما كان يكرههم. ولكن كان يخشى أن تضيع كل دعوة للحق نتيجة لبطشهم العنيف." فكان يدلي أولا وببراعة، بالرأي المخالف لبني أمية، ثم ينكره تقية . حين يهددون . وهو على علم بأن الإنكار لا يفيد، إن الرأي إذا انتشر، لم يمت أبدا، بل يعيش أمدا طويلا"(4)

ونرى هذا الرأي صائب فلولا فعل الحسن هذا لكان نكل به بنوا أمية أيما تنكيل، وربما قتل وصلب كغيره.

"ومن هنا ستنطلق **حركة تنويرية** جعلت قضيتها الأساسية نشر وعي جديد بين الناس، الوعي بأن الإنسان والحكام في مقدمتهم، يفعل ما يفعل بإرادته واختياره وأن الله لا يرضى الظلم فكيف يجبره على فعله؟"(5)

---

[1]. الشهرستاني،الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص42.

[2]. محمد عمارة، **المعتزلة ومشكلة الحرية السياسية**،القاهرة،دار الشروق،ط2: 1408هـ1988م.ص150.

[3]. طاش كبري زادة، مفتاح السعادة، ج2، مصدر سابق،ص 146.

[4].النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 318.

[5].الجابري، العقل السياسي العربي، مرجع سابق، ص 310.

وقد رأينا أن رواد هذه الحركة . في مبحث المنشأ . هم **معبد الجهني، وعمر المقصوص، وغيلان الدمشقي،** وتابعتهم **المعتزلة،** وهم القدرية.خاصة إذا عرفنا . كما يقول الجابري . "أن هذه الفرق الدينية في الأصل أحزاب سياسية، تمارس السياسة في الدين"(1).

فمعبد الجهني كان من تلامذة أبي ذر الغفاري، ومعلوم زهد هذا الصحابي وورعه رضي الله عنه وأنه كان من المنكرين على بني أمية، ويذكر النشار:" أن معبد كان في صحبة أبي ذر في رحلته المشهورة إلى الشام، حين أنكر على معاوية والأمويين في دمشق ثراءهم وترفهم وتلاعبهم ببيت المال مدعين أن المال مال الله وأعلن أبو ذر أن المال مال المسلمين، ونتج عن هذا إعلان الأموية لنظرية الجبر الإلهي المطلق، وأن القدر الإلهي هو الذي فرض وجودهم على أعناق المسلمين وعلى بيت مالهم. ولا شك أن معبدا كان يلحظ الأحداث مع أستاذه."(2)

ومن نص رسالة الحسن البصري . على رأي من نسبها إليه . يتبين لنا حقيقة معبد الجهني، أنه كان ينكر على ملوك بني أمية مظاليمهم باسم العدل الإلهي، وهناك نص حاسم يثبت أن معبدا نادى بنظرية العدل،كما عرفها المعتزلة فيما بعد، ذكر القاضي عبد الجبار أن أم معبد الجهني قابلت الحسن البصري بعد قتله، وقالت له . وهي تقص أخبار ابنها " لقد شهدت ابني في الناس يقول القول بالعدل"(3)

لقد بلغ تأثير دعاة الاختيار حتى في بعض أفراد الأسرة الحاكمة، فمنهم من كان مقربا إليها **كعمرو المقصوص،** ولم تذكر المصادر من الأخبار إلا النزر القليل عنه،ومما ذكر:" أنه أول من نادى بالقدر في الشام، وكان معلما لمعاوية الثاني، وأثر أكبر الأثر فيه، فاعتنق

---

1. الجابري، المرجع السابق، ص 300.
2. النشار، ج1، مرجع سابق، ص 318.
3. القاضي عبد الجبار، طبقات المعتزلة، مصدر سابق، ص 334.

معاوية الثاني*مذهب الإرادة الحرة في مركز الجبرية (دمشق)" فلما مات يزيد، وبايع الناس معاوية، توجه إلى معلمه ليسأله. فقال له عمرو المقصوص:إما أن تعدل وإما أن تعتزل. فخطب معاوية فقال: إنا بلينا بكم، وابتليتم بنا. وإن جدي معاوية نازع الأمر من كان أولى منه وأحق.فركب منه ما تعلمون حتى صار مرتهنا بعمله، ثم تقلده أبي وكان غير خليق به .. ثم نزل واعتزل الناس، حتى مات بعد أربعين يوما من خلافته" (1)ونرى أن تأثيرا كهذا ليس في أوساط الناس بل في عقر دار الخلافة، سيجعل من الأسرة الحاكمة تعيد التفكير بجدية أكثر، كيف توقف زحف دعاة الاختيار، خاصة وأنهم بدأوا إعلان التحريض ضد بني أمية، ومناهضة حكمهم، "إن أهم شخصية في هذا الصدد هو **غيلان الدمشقي**، وتنسب إليه المصادر دورا أساسيا في نشر الإيديولوجية التنويرية، وأنه كان له أتباع كثيرون من مختلف الأوساط، أما علاقته " **بهشام ابن عبد الملك** "**فكانت متقلبة، ولم يكتف غيلان بمحاربة إيديولوجية الجبر بالفكر وحسب بل إنه عمل على التحريض على الثورة في "أرمينيا" فاتخذ هشام بن عبد الملك ذلك ذريعة لإلقاء القبض عليه وإعدامه"(2)

ونرى ذلك حتى وهو بين يدي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بن مروان، حيث يذكر أن حوارا دار بينهما. فكان رد غيلان فيه جريئا، مناهضا لقول بني أمية بالجبر "قال هشام:

---

*ـ **معاوية الثاني:** (أبو عبد الرحمن)، بن يزيد بن معاوية، استخلف في بعهد من أبيه في ربيع الأول سنة (64هـ)، وكان شابا صالحا، واستخلف وهو مريض، واستمرت خلافته أربعين يوما، ولما احتضر قيل له ألا تستخلف؟ قال:" ما أصبت من حلاوتها فلم أتحمل مرارتها" = السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص168.

1. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 321.

** **هشام بن عبد الملك:** أبو الوليد، ولد سنة نيف وسبعين، واستخلف بعهد من أخيه يزيد، وكان حازما عاقلا، مات في ربيع الاخر سنة (125 هـ). = السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص ص: 196.197.

2. الجابري، العقل السياسي العربي، مرجع سابق، ص ص:312. 313.

زعمت أن ما في الدنيا ليس هو عطاء من الله لنا. فقال له غيلان: أعوذ بجلال الله أن يأتمن خوانا، أو يستخلف الخلفاء من خلقه فجارا، إن أئمته القوامون بأحكامه الراهبون لمقامه، الذين كايدوا بالعدل الدول، وخافوا مقاما لا يجدون عنه حولا، ولا يتعللون بالعلل، باتوا ومقامهم المحمود، وليلهم المشهود بطول القيام والسجود

لم يول الله وثابا على الفجور، ولا ركابا للمحظور، ولا شهادا بالزور، ولا شرابا للخمور."(1) والذي يظهر لنا من خلال هذا النص أن غيلان قد أعلن ثورته على الجبر، وأظهر معاندته لإيديولوجية بني أمية، ولم يأخذ بالتقية كما فعل الحسن البصري، وفي ذلك جرأة ما بعدها جرأة، ونستثني في هذا المقام فترة حكم عمر بن عبد العزيز، التي خمدت فيها جذوة الجبر التي أورتها أيدي الملوك قبله، وانطفأت نار الفتنة التي أتت على أخضر العقول ويابسها. بل على النقيض تماما فقد كان غيلان مقربا من عمر بن عبد العزيز، فتروى كتب التاريخ أنه حين تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة حاول أن يرد المظالم فما كان منه إلا أن دعا غيلان الدمشقي "وقال له عمر: أعنيَّ على ما أنا فيه فقال غيلان: ولَّني بيع الخزائن ، ورد المظالم فولاّه، فكان يبيعها، وينادى عليها ويقول: تعالوا إلى متاع الخونة. تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته، وكان فيما عليه جوارب خز فبلغ ثمنها ألف درهم، وقد ائتكل بعضها، فقال غيلان: من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى، وهذا يأتكل والناس يموتون من الجوع."(2)

وهذا النص يطرح مجموعة من التساؤلات المهمة ومنها: كيف يستعين الخليفة عمر بن عبد العزيز –التقى الورع–برجل يتهم بالزندقة والخروج عن تعاليم الإسلام لكي يوزع المال الزائد عن حاجة بني أمية؟ لماذا سمح له عمر بن عبد العزيز أن يتهم بني جلدته بأنهم ظلمة وخونة، ويتركه يوزع الأموال التي أخذوها ظلماً؟

---

1. القاضي عبد الجبار، طبقات المعتزلة، مصدر سابق، ص 233.
2. ابن المرتضى، المنية والأمل، مصدر سابق، ص 16.

يقال أن عمر بن عبد العزيز كان من محبيه ، وكان غيلان يرتاد عليه كثيرا، وقد قال فيه:"من سره أن ينظر إلى رجل قد وهب نفسه لله وفرغها له، وليس فيه عضو إلا وهو ينطق بالحكمة. فلينظر إلى هذا (يقصد غيلان) (1)، والذي يظهر لنا أيضا أن عمر بن عبد العزيز ترك القول بالجبر لعلمه، وورعه وتقواه وعدله بين الرعية.

ونلاحظ هنا أن العلاقة الطيبة التي كانت بين عمر وغيلان، ربما دعت هذا الأخير إلى عرض القول بالقدر على عمر، بصيغة أخرى دعوته إلى الإيمان بمذهبه القدري، من خلال نص رسالة بعثها إليه*.

كانت أغلب الروافد الفكرية للقائلين بالحرية والاختيار قد صبت في مصب واحد وهو حركة **المعتزلة**،" التي ورثت كل التقاليد الفكرية والنضالية للقائلين بالعدل والتوحيد.. ولقد مارست هذه الحركة أيضا منذ البداية نشاطا سياسيا ملحوظا، وشاركت في الثورة ضد الأمويين، وحاولت في بعض الأحيان أن تغير السلطة من الداخل."(2)

ونعرض هنا أيضا موقف **المعتزلة** . وإن قيل إنهم كانوا أبعد عن السياسة . (3)، إن المعتزلة **نفوا الصفات** خاصة صفة العلم، وربما قالوا ذلك تصديا لقول بني أمية بالجبر، لأن القول به

---

[1]. القاضي عبد الجبار، طبقات المعتزلة، مصدر سابق، ص 230.

*يقول فيها: "أبصرت يا عمر وما كدت،ونظرت وما كدت..لا ترى أثرا فتتبع، ولا تسمع صوتا فتنتفع،قد خفي عليك..ولكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله، فهذا مثل الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين، فهل وجدت يا عمر حكيما يعيب ما صنع، أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى، أو يقضي على ما يعذب عليه، أم هل وجدت رشيدا يدعو إلى الهدى ثم يصد عنه،أم هل وجدت رحيما يكلف العباد فوق الطاقة، أو يعذبهم على الطاعة .. أم هل وجدت عادلا يحمل الناس على الظلم والتظالم بينهم..فلا تنظر إلى أولئك واعلم أنه لا ينبغي للبصير أن ينقاد للعمى.والسلام" =المصدر نفسه، ص ص: 230.231، أيضا، ابن المرتضى، المنية والأمل، مصدر سابق، ص 16.

[2]. محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية، مرجع سابق، ص 151.

[3]. محمد عمارة، **المعتزلة والثورة**،مصر، دار الهلال، (د،ط)(د،ت)، ص ص: 61.62.

يستند على دعوى" العلم الإلهي السابق" التي روجوا لها. مما يعني أن الله كان على علم بكل شيء منذ الأزل حتى أفعال الناس، وهو بالتالي الذي قدرها عليهم. وقالوا ذات الله وصفاته شيء واحد، فلا يجوز الفصل بينها كما هو الحال عند البشر، وهذا ما يساوي عندهم التوحيد، والله عادل لا يمكن أن يصدر عن علمه السابق ظلم فكيف يقدر الفعل أزلا، ويقدر ثوابه وعقابه أيضا، وهذا ما يساوي عندهم العدل، ومن ذلك سموا أنفسهم أهل **التوحيد والعدل**، ولا شك أن التسمية أيضا فيها إيحاء بالمعارضة لبني أمية.

يقول الجابري في ذلك" التوحيد معناه تنزيه الله من الصفات التي تطلق على البشر، ومن بينها صفة العلم التي يستغلها الحكام الأمويون في قولهم: أن منا فعلوا كان في سابق علم الله، أي مقدر عليهم، والعدل معناه نفي الظلم عن الله، وإثبات القدرة على الفعل والإرادة والاختيار والمسؤولية للإنسان، وبالتالي خضوعه للثواب والعقاب"(1).

وقد رأينا في مبحث نشوء الجبر والاختيار، كيف أن المعتزلة لخصوا هذه المسألة:" خلق الأفعال"، ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يجبر مخلوقا على فعل معصية أو طاعة،" ونحن نرى أصناف الشرور في العالم كله، ونرى الكافر يفعل المعاصي ولا يخشى منها، والفاسق يرتكب آثامه دون مبالاة، وأن من فعل الظلم فهو ظالم ومن أتى الشر فهو شرير. وإذن **فالعباد خالقون لأفعالهم** ومسؤولون عنها، والله سبحانه لا يريد الشر ولا يحبه ولا يفعله ولا يقدر عليه، إذ لو شاءه لكان محبا له، ولما صح أن يعاقب الناس على فعله وخلقه."(2)، ومن هنا نرى تولد قولهم بأن **الحسن والقبح عقليان** وليسا شرعيان. يعلمان بالعقل وليس بالنقل. وأن الإنسان قادر على معرفة فعله الحسن من السيئ بداهة، لأنه صاحب عقل، ولا يكون هذا القول إلا ضد مرمى ما كانت تفعله بنو أمية. وتصبوا إلى ترويجه.

---

[1]. الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مرجع سابق، ص 83.

[2]. محمد العبدة وطارق عبد الحكيم، المعتزلة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص58.

المبحث الأول: التوظيف السياسي لمقولتي الجبر و الاختيار

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان هو من نتائج التقييم للسلطة الأموية لقد رأى أهل العدل والتوحيد في **وجوبه** موقفا سياسيا واعتبره المعتزلة أصلا من أصولهم الخمسة، تندرج مباحثه تحت أصل العدل، الخاص بالحرية والاختيار «هو أصل سياسي في جوهره، يتلخص في مشروعية الثورة، بل وجوبها، وضرورة الخروج على السلطة الجائرة لتغييرها بالقوة .. وإدراج المعتزلة لهذا الأصل من أصولهم تحت مبحث العدل، يجعل منه دليلا على وجود أبعاد سياسية هامة لمبحث العدل عندهم، الذي هو بالدرجة الأولى مبحث الحرية والاختيار بالنسبة للإنسان"(1)

يلخص الجابري غرض المبادئ الخمسة للمعتزلة كفرقة سياسية بقوله:" لقد كان المنطق هو تحميل الأمويين مسؤولية أعمالهم، وذلك موقف سياسي دنيوي طبيعي"(2)

"لقد تحددت الأبعاد السياسية للاختيار، لأنه كان الموقف الفكري المناهض "للجبر"، كما كان أهل العدل والتوحيد هم القائمون فكريا وعمليا على نظرية هذا الاتجاه الفكري ضد خصومهم من المفكرين والسياسيين. ولقد شاع هذا الموقف المعادي من قبل القائلين بالعدل للسلطة الأموية حتى صار سمة عامة لهم، تجمع كل الذين قالوا بالحرية والاختيار للإنسان من كل الفرق والمدارس والأصول العرقية والتيارات." (3). ابتدا ء بمعبد الجهني وانتهاء بالمعتزلة كما رأينا.

ولكن هل يترك بنو أمية هذه الحركة التنويرية تقوض أركان ما بنوه طيلة أحقاب؟ هل يعاملونهم بندية الفكر فتكون الفكرة مقابل الفكرة والغلبة لصاحب الحجة والناس حكم في ذلك وميلهم إلى طرف هو مقياس الغلبة؟ **أم عند بني أمية وسيلة أخرى ترد فكر الاختيار والحرية؟**

---

[1]. محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، مرجع سابق، ص 155.

[2]. الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مرجع سابق، ص 86.

[3]. محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، مرجع سابق، ص 151.

"ثمة ظاهرة تستحق أن تكون ملحوظة، فخلفاء دمشق أنفسهم .. وجدوا من مضايقات هذه الحركة القدرية التي انتشرت بين مسلمي الشام، فاتخذوا أحيانا موقفا شديدا إزاء أنصار حرية الإرادة الإنسانية."(1)فالقضية إذن ليست إحقاقا للعقيدة، وإبطالا للفاسد منها عند المعارضين، الذين يخالفون الدين ويقعون في الزندقة كما نتصور. بل هو القمع بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

"فها هو عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي الذي اضطلع بكفاح مؤلم لتقوية سلطانه قد اجتذب إلى قصره أحد نظرائه وخصومه وذبحه باستحسان صاحب مشورته، أمر

برمي رأسه إلى جمهور المخلصين له الذين كانوا ينتظرون أمام القصر عودته، كما أمر بإعلامهم أن" أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ." .

هكذا روي هذا الحادث الجلل، وكان من الطبيعي أن لا يرى أحد أن يثور ضد القضاء الإلهي الذي لم يكن الخليفة إلا أداته ..وأقسموا يمين الطاعة والإخلاص لقاتل من كانوا مخلصين له بالأمس. وهذه القصة إن لم تكن من التاريخ الصحيح قطعا، فإنها يمكن مع هذا أن تعتبر شاهدا على الصلة التي كانت توجد بين أعمال الحكومة والقدر الذي لا يمكن تجنبه.(2)

" قبض على معبد الجهني وأودع سجن الحجاج مقيدا. وكان الحجاج يعذبه عذابا شديدا، ثم أراد الحجاج أن يتشفى به. فطلب من أتباعه أن يأتوا إليه به، فلما رآه الحجاج قال له: يا معبد، كيف ترى قسم الله لك؟ قال: يا حجاج خلي بيني وبين قسم الله، فإن لم يكن لي قسم إلا هذا رضيت به. فقال له: يا معبد أليس قيدك بقضاء الله؟ قال: يا حجاج، ما رأيت أحدا قيدني غيرك. فأطلق قيدي، فإن أدخله قضاء الله رضيت به."(3).

---

1. جولد تسيهير، العقيدة والشريعة، مرجع سابق، ص 97.
2. المرجع نفسه، ص 98.
3. القاضي عبد الجبار، طبقات المعتزلة، مصدر سابق، ص 234.

وهو حوار يبين عقيدة الجبر على لسان الحجاج والي بني أمية حتى في تعذيبه لمعبد يريد بذلك ثنيه عن معتقده في القدر، يقول النشار:" وهكذا كان يعلن معبد الجهني قبل موته مذهب الإرادة الإنسانية الحرة وعدل الله الذي لا يظلم أحدا، وأمر الحجاج بتعذيبه فعذب وقتل صلبا. بعد عام 80هـ."(1)، هكذا الفعل السياسي مع المخالفين، عند بني أمية، ليس بالحوار ولا النقاش ولا مقارعة الحجج، ولكن بحد السيوف تقطع الرؤوس لا الألسن، لأن الألسن ما هي إلا أداة توصل للناس ما حوته الرؤوس، هكذا كان يفكر ساسة بني أمية، والسادة من ولاتهم.

لذلك كان الحسن البصري يتقي هذا الشر، قيل له:" ألا تدخل على الأمراء تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه، إن سيوفهم لتسبق ألسنتنا إذا تكلمنا، قالوا بسيوفهم هكذا، ووصف بيده ضربا"(2)

وأما **غيلان الدمشقي** فإنه لما قربه عمر بن عبد العزيز منه وأدناه، واستخدمه وولاه، وبيع الخزائن أعطاه، مر به **هشام بن عبد الملك**، فسمعه يقول في بني أمية ما يقول، فتوعده إن هو ظفر به الوعيد الشديد *، ويرى السيوطي والأوزاعي أن ما أصاب غيلان كان بسبب

---

1. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 319.
2. ابن سعد، كتاب الطبقات، ج9، مصدر سابق، ص 176.

* قال: أرى هذا بعيني، ويعيب آبائي، والله إن ظفرت به لأقطعن يديه، ورجليه، فلما ولّى هشام خرج غيلان وصاحبه صالح إلى أرمينية فأرسل في طلبهما فج يء بهما فحبسهما أياماً ثم أخرجهما، =وقطع أيديهما وأرجلهما، وقال لغيلان كيف ترى ما صنع ربك بك؟ فالتفت غيلان فقال: لعن الله من فعل هذا، ومات صالح، وصلى عليه غيلان، ثم أقبل على الناس، وقال : قاتلهم الله كم من حق أماتوه، فقيل لهشام قطعت يدي غيلان ورجليه، وأطلقت لسانه إنه قد أبكى الناس، ونبههم على ما كانوا عنه غافلين، فأرسل إليه من قطع لسانه فمات رحمه الله "=ابن المرتضى، المنية والأمل، مصدر سابق، ص 17، أيضا: القاضي عبد الجبار، طبقات المعتزلة، مصدر سابق،ص ص: 231. .233.

دعوة لحقته من عمر بن عبد العزيز *، حتى وإن صح ذلك، فلا يمكن أن نعيد السبب الأكبر في قتل غيلان إلى دعوة عمر، ونهمل الجانب الآخر وهو ثورة غيلان على ظلم بني أمية، ولماذا يقطع لسانه؟ هل لأنه كان أبلغ في إيصال الحقيقة للناس. الحقيقة التي يخشى منها بنو أمية، التي يمكن أن تثير الناس ضد نظام حكمهم الجائر، فالأسباب كانت سياسية، وإن اتخذت أحياناً بعض المبررات الدينية، هذه المبررات التي اتخذتها السلطة لجر الفقهاء إلى حلبة صراعهم الإيديولوجي ضد القدرية دعاة الحرية (توظيف للفقه ضد ما اعتبر زندقة) هذا هو التشهير الإعلامي الذي سوقته سلطة بني أمية للعامة وعلى رأسهم الفقهاء.

" لقد رأى هشام أن يضفي على قتل غيلان بعض المشروعية، فدفع به إلى الأوزاعي ليناقشه، ويفتي في أمره .. وناقش الأوزاعي غيلان، وثبت غيلان على رأيه، فأفتى الأوزاعي بتعذيبه وقتله"(1)

يحيلنا الكلام عن توظيف الفقهاء سياسيا . ليس دينيا. لصالح بني أمية، إلى التساؤل **هل طال التوظيف السياسي الجبرية** . دعاة الجبر.؟ الذين رأينا ونخص أعلامها، الجعد بن درهم والجهم ابن صفوان وهما من أعلام الجبرية، فالمنطق السياسي يوحي بأن عقيدة هؤلاء تخدم إيديولوجية السلطة الحاكمة.

---

* قال الأوزاعي:"..وأخذ غيلان هشام بن عبد الملك فصلبه بباب دمشق. يقال إن ذلك بدعوة عمر بن عبد العزيز."=طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة، ج2، مصدر سابق، ص147.
وسبب دعوة عمر عليه أن، عمر بن عبد العزيز استتابه لما أظهر القدر، فقال غيلان: لقد كنت ضالا فهديتني، فقال عمر: اللهم إن كان صادقا، وإلا فاصلبه واقطع يديه ورجليه، فنفذت فيه دعوته فأخذ في خلافة هشام بن عبد الملك وقطعت أربعته وصلب بدمشق في القدر." = السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق،ص 193.

1. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 325.

المبحث الأول: التوظيف السياسي لمقولتي الجبر و الاختيار

يشهد التاريخ أن تنكيل بني أمية بأعلام الجبر لا يقل عن تنكيلهم بأعلام القدرية، خلاف المنطق السياسي، حتى هؤلاء لم يسلموا من جور بني أمية. والسؤال المطروح هنا:

إذا كانت إيديولوجية الدولة الأموية هي الجبر، فلماذا اتخذت موقفاً سلبياً من أعلام الجبرية؟ ولماذا لم توظفهم ضد دعاة الاختيار؟

لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا في ضوء موقف الدولة الأموية من الموالي والعجم، فقد اتخذت هذه الدولة موقفاً سلبياً من الموالي، وهذا ما جعل الموالي يثورون عليها. "فللدولة الأموية كانت تشكك في إسلام الموالي من أهل بلاد فارس وخراسان بحجة أن إسلامهم غير خالص(لله)، وظلَّ الأمويون لأسباب اقتصادية يأخذون نصف الجزية من هؤلاء المسلمين حاكمين على عقائد هذه الجماهير بأنها دون المستوى المطلوب"(1)

"إن الجبريين أنفسهم كان كثير منهم يعارض الأمويين. لأ ن معارضي بني أمية كانوا أحزابا عدة، ومذاهب مختلفة وكان لكل من هذه الأحزاب والمذاهب أسلحته الفكرية التي يقاتل بها حكم الأمويين، وما كانت القدرية السلاح الوحيد على بني أمية .. فليس كل جبري ملائما في تفكيره لسياسة الخلفاء الأمويين"(2).

وتبدو المصنفات التاريخية واضحة في الكشف عن طريقة تصفية الجبرية الأوائل، فسعيد بن جبير * كان من الجبرية الأوائل، وكان قد خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث، فلما انهزم قبض عليه الحجاج. **ولأن سعيد بن جبير كان معروفاً بالزهد والورع، ولم تكن الدولة

---

1. محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، مرجع سابق، ص 30.

2. حسين مروة، النزعات المادية، ج2، مرجع سابق، ص 565.

*. **سعيد بن جبير**: بن هشام، مولى بني والبة بن الحارث من بني أسد، كوفي، أحد أعلام التابعين، وكان أسودا، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قتل في شعبان سنة(95هـ) بواسط، وله تسع وأربعون سنة. = ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، مصدر سابق، ص261.

**. قال الحجاج لسعيد: اختر أي قتلة شئت قال: بلى أنت فاختر لنفسك فإن القصاص أمامك، فقال له: يا شقي بن كسير، ألم أقدم الكوفة وبها العرب فجعلتك إماماً؟ قال: بلى، قال: ألم أولِّك القضاء فصاح الناس

الأموية تستطيع التشكيك في عقيدته، فأخذت عليه نقضه لبيعة بن ي أمية، لأنه كان يدعو إلى الثورة عليهم.

أما الجعد بن درهم فقد قتله خالد عبد الله القسر ي عام (124 هـ)،وذلك يوم عيد أضحى كما رأينا. وهنا نرى أن تشكيك السلطة السياسة في عقيدة الجعد جاء في مبحث الإلهيات، ولم يكن الأمويون يقيمون وزنا لدعوتهم عن الجبرية التي كانوا يحكمون بها.

"ويبرر أحد العلماء المحدثين مقتل جهم بن صفوان بأنه كان ذا أسباب سياسية فقد كان جهم بن صفوان يناصر الحارث بن سريج الذي خرج على الدولة الأموية، وكان الحارث حريصاً على إقامة أحكام الكتاب والسنة، وجعل الأمر شورى، ورفض الانغماس في إمرة الظالمين، ورفض أعليتهم، والعمل لهم "(1)واتبع بنو أمية مع الجهم بن صفوان طريقة التشكيك في عقيدته فرماه هشام بن عبد الملك بالدهرية، ولهذا وجب قتله، ويرد القاسمي "بأن نبز هشام له بأنه من الدهرية، إنما أراد به زيادة الإغراء بقتله ليكون حجة له، وتمويهاً على العامة، ولمن لا يدرى حقيقة الأمر في هدر دمه، فقد علمت أن الباعث على قتله أمر سياسي محض، لأن جهماً كان خطيب الحارث، وقارئ كتبه في المجامع، والداعي إلى رأيه، وإلى الخروج معه على بنى أمية وعمالهم لسوء سيرتهم، وقبح أعمالهم، وشدة بغيهم"(2)

=وقالوا: لا يصلح القضاء إلا لعربي .. قال: فما أخرجك، قال: بيعة كانت لابن الأشعث في عنقي، = فغضب الحجاج وقال: بيعة أمير المؤمنين من قبل في عنقك, والله لأقتلنك , وقتله الحجاج وهو =ابن سبع وأربعين سنة"=التميمي،(محمد بن أحمد التميمي)، **المحن**، تحقيق وهيب الجبوري،بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط3 :1427هـ2006م، ص 196.

[1]. جمال الدين القاسمي، **تاريخ الجهمية، مصدر سابق**،ص 16.

[2]. المصدر نفسه، ص ص:18.17.

المبحث الأول: التوظيف السياسي لمقولتي الجبر و الاختيار

قرأنا سؤلا مشروعا لأحد الباحثين يقول فيه:" هل كانت سلطة بنى أمية في قتل الجبرية – الذين يستندون إلى نفس أيديولوجيتهم في تكريس حكمهم– ترسى دعائم أركانها من ثورات الموالي، وتستمد شرعيتها في نفس الوقت من رضي فقهاء هذا العصر بدعوى الحفاظ على العقيدة؟!"(1)

هناك من يذهب إلى تبرئة الفقهاء ويقول إنه "حجب عن العديد من الفقهاء الأبعاد الحقيقية لاصطدام بعض أوائل المتكلمين مع السلطة السياسية، وهو الذي أدى بالتالي إلى سكوت أغلب الفقهاء عن إدانة العنف الذي قابل به الولاة السياسيون المواقف السياسية لأولئك المتكلمين، ويرجع هذا السكوت من جانب الفقهاء إلى غفلتهم عن الأبعاد السياسية الواضحة التي طرأت عن تلك المواقف الكلامية، وأعطتها معانيها الأولى، وسوف يستغل رجل السلطة هذه الغفلة من جانب الفقهاء ليجهز على خصومه بحجة حفظ الدين والعقائد من زيغ أصحاب الأهواء، والملل، والنحل"(2)

ومن كلا الجانبين، جانب ما فعله بنو أمية بالقدرية، أو ما فعلوه بالجبرية، نلاحظ مدى قدرة السلطة السياسية على توظيف الجوانب الدينية لخدمة أغراضها السياسية مثل توظيف العقيدة . الجبر. كإيديولوجية حتى يذعن الناس، والتسلط في عقاب من يخالف هذه العقيدة، والتنكيل بالمعارضة الداعية إلى عقيدة الحرية والاختيار. وتوظيف سلطة الفقهاء لما لهم من سمعة عند الناس . وهم في غفلة من هذا التوظيف . ضد السلف من الجهمية ودعاة الجبر، وإقصاء الجبرية الذين يثورون ضد حكم بني أمية ويهددون أركانه.

لأن الجبر يعني عند . الموالي . الذين اضطهدوا: الخضوع التام لإرادة الله تعالى، والتحرر من استعباد البشر، لذلك لا يستو معنى الجبر عند هؤلاء ومعناه عند بني أمية، وهذا ما

---

1. أحمد محمد سالم، **قضية الجبر والحرية الإنسانية في علم الكلام** ،موقع الحوار اليوم: http://www.alhiwartoday.net/node/1383.نشر بتاريخ: 2011/08/08م، الساعة: 10:20

2. عبد المجيد الصغير، الفكر الأصولي، مرجع سابق، ص 44.

يفسر خروجهم على بني أمية والقيام بالثورة ضدهم. وهو ما يفسر اتساق عقيدة الجبرية مع طبيعتهم الثورية. ولو كان هؤلاء على منوال بني أمية لوظفوهم في خدمة أيديولوجيتهم. يضاف إلى ذلك أن بني أمية كانوا ينظرون إلى الموالي نظرة العنصر الدخيل على العنصر العربي المسلم، وهذا ما يفسر استعانة بني العباس بهم لإقامة دولتهم.

إن التوظيف الذي استعملته سلطة بني أمية ليس ضد عقيدة الحرية المعاكسة للجبر، ولكن ضد الحرية الإنسانية عموما، حرية اختيار الحاكم (الشورى) فأصبح النظام السياسي ملكا متوارثا، وحرية الفكر وحرية الرأي فلا رأي يعلوا على رأي السلطان. إن هذا التوظيف يعني تكميم الأفواه وإسكاتها وإن أدى ذلك إلى قتل أصحاب الرأي المخالف.

" إن رجل "**السلطة**" قد أدرك خطورة "**العلم** "الذي يميز العالم ! .. وكأن هذا الأخير قد أدرك أن العلم لا يمكن أن يكون محايدا، فهو إما مع السلطة .. يدين لها بالولاء والطاعة، وإلا فإنه بالضرورة ضدها .. إن وجود بصمات "رجل العلم" وراء كثير من الانتفاضات والحركات الاجتماعية في الإسلام، لم يكن من شأنه إلا أن يزيد من عنف رجل السلطة، فيدفعه إلى تأديب رجالات العلم الذين لا يقفون منه موقف التأييد، فضلا عن الذين أبدوا معارضة صريحة أو ضمنية له" [1]

بحكم السياسة فرجل السلطة يريد أن يصنف العلماء فيدني من يسير في فلك أيديولوجيته، ويعري وجه من يقف في وجه مبتغاه، ويهدد كرسي ملكه، فيبسط كل البسط هيمنته عليه ولو كلف ذلك قطع رأسه ونسله معه. وتلحق نقمة السلطان رجل العلم حتى بعد موته فلعله يتحول إلى ذكرى حزينة تجمع حولها الأنصار وتلهب عواطفهم فينقلبون ضد رجل السلطة ويحدثون القلاقل والاضطرابا ت والانقلابات، لقد علم رجل السلطة كل ذلك فاحتاط لرجل العلم وأخذ منه كل الحذر حيا كان أو ميتا.

" فحين خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم، بالكوفة على هشام بن عبد الملك، ووالي العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي، فقتل ودفن، فعلم به يوسف بن عمر، فنبش قبره، وصلبه، ثم كتب هشام يأمر بأن يحرق، فأحرق ونسف رماده في الفرات."[2]

نجزم من خلال استقراء التاريخ أن هناك طمعا من رجل السياسة في السلطة المعرفية التي يحوزها رجل العلم، ويكسب بها ود الناس، هذا الود المغري لرجل السياسة، الذي يريد أن يجمع بين السلطتين السياسية والمعرفية في يد واحدة. خاصة إذا علمنا أن العصر الذي نحن بصدد البحث فيه هو العصر العباسي، الذي كان فيه للسلطان رهبته، وللعالم هيبته.

---

[1]. عبد المجيد الصغير، الفكر الأصولي، مرجع سابق، ص 127.

[2]. الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج 1، مصدر سابق، ص 153.

إن الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الموالي والعجم، كان فعل العباسيين معهم غير فعل الأمويين كما رأينا، لقد استفاد العباسيون من تجربة الظلم التي مارسهابنو أمية ضد الموالي. وكسبوهم إلى صفهم، وأتاحوا لهم الحرية، وفي المقابل جلبوا على أنفسهم عداء الفقهاء المعارضين." وبسبب هذه الحرية لم يستطع خلفاء الدولة العباسية كسب مشروعية وجودهم بسلطة الفقه المعارض، وقد تعرض بعض الفقهاء للتعذيب بسبب مواقفهم من الدولة العباسية "فحين سئل الإمام مالك عن البيعة قال: إذا أكرهت عليها وتخوفت إن لم تحلف بها أن تقتل أو تعاقب فلا شيء عليك، ولقد ضرب الإمام بسبب هذه المسألة مائة سوط"[1].

إن السلطة الأموية وظفت الفقهاء في مشروعها السياسي، ولكن سلطة بني العباس . خاصة في عهد المأمون والواثق والمتوكل . سيكون مشروعها السياسي ضد سلطة بعض الفقهاء ذاتهم، مشروع نراه ذو ثلاثة أهداف:

. توظيف جهة من غير الفقهاء تكسب بها مشروعية الحكم.

. وتنزع بهذه الجهة السلطة المعرفية من الفقهاء.

. استمالة العوام إليها، من خلال كسر شوكة الفقهاء (الذين كان لهم القدرة على تحريكهم).

والهدفين الأخيرين إنما يبنيان على الهدف الأول.

" ومن جانب آخر فقد ترتب على مد الموالي والعجم الواضح في خلافة الدولة العباسية أن انتشرت النزعات الباطنية، والملا حدة، فوقعت سلطة الخلافة العباسية تحت تهديد تلك النزعات وما نتج عنه من حركات تمرد من ناحية، وبين توتر واضح في العلاقة مع سلطة الفقهاء من ناحية أخرى، وفي تلك الأجواء **ظهرت المعتزلة** على الساحة السياسية لتلعب دوراً هاماً في تاريخ الدولة العباسية "[2]

---

[1]. التميمي، المحن، مصدر سابق،ص266.

[2]. زهدي جار الله، **المعتزلة**، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1: 1974م،ص166.

لقد سعى المأمون منذ بدايات حكمه إلى رسم معالم الجهة التي سيحقق بها الأهداف المذكورة آنفا، لذلك عين الجهة التي سيوظفها وهم المعتزلة، وقربهم وأدناهم . كما رأينا سابقا . من البلاط حتى صار **الاعتزال إيديولوجية الدولة العباسية** آنذاك.

" **فاعتبر بحق العصر العباسي الأول عصر ازدهار المعتزلة وعنفوانها،** "[1].

إن المعتزلة سعوا في عهد هارون الرشيد إلى التموقع السياسي وإيجاد المنفذ لترسيخ عقيدتهم، ولكن كما رأينا سلفا فقد كان الرشيد ضد بعض عقائدهم وخاصة خلق القرآن، ثم واتتهم الفرصة في عهد المأمون، ذلك أنه غذي منذ صغره من لبان عقائدهم، " وقد تربى تحت سيطرتهم وخضع لنفوذهم، ولبعض كبرائهم كيحي بن المبارك، وكان لثمامة بن الأشرس مكانة عظيمة لديه "[2]."**فتشرَّب آراءهم**، وشبَّ على مبادئهم، ويقولون "أن ثمامة هذا هو الذي أغواه، ودعاه إلى الاعتزال"[3]

يضاف إلى ذلك البيئة الثقافية العلمية كانت في صف المعتزلة، لقد برزت في هذه الفترة، خاصة في زمن الرشيد والمأمون حركة علمية وأدبية رهيبة، ودخلت الثقافات والفلسفات إلى ديار المسلمين عن طريق عملية الترجمة التي بلغت أوجها زمن المأمون.

إن هذا الظرف دعا إلى النشاط العقلي المتحرر، وهذه كانت ميزة المعتزلة.

سيحدث كل هذا تجاذبا بين البيئة، وعقلية المعتزلة، وهوى المأمون" الذي **كان متعطشاً** إلى العلم والفلسفة، شغوفاً بالآداب، محبا للمناقشة و الجدال، ولهذا .. ارتاح إلى أحاديثهم ، واستطاب مجالسهم، فأدى به ذلك إلى الإيمان بمبادئهم والدخول في مذهبهم. فوقع تحت تأثيرهم، وقد وجد المعتزلة، فرصة للاستئثار بالسلطة، فلقنوه مبادئهم وأقنعوه أنها الحق المبين، ومما لا ش ك فيه أن المعتزليّ الذي كان له في المأمون أكبر الأثر، والذي تم

---

[1]. محمد العبدة وطارق عبد الحكيم، المعتزلة بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص 117.

[2]. الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق،ص 63

[3]. البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص 152.

للمعتزلة على يده تحقيق مآربهم وبلوغ أهدافهم، ووصلوا بجهوده ورعايته أوج رفعتهم، إنما كان القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي."[1]

ولكن ما هي الطريقة التي سينال بها المأمون من خصومه الفقهاء"؟

سيعود المأمون إلى مسألة **خلق القرآن** التي كان يقول بها المعتزلة وكانوا يبرعون في الحجاج لها. والتي كانت في عهد قريب مرفوضة من أبيه الرشيد.*

فهل يجوز القول بعد ذلك أن: **المعتزلة ستحاول توظيف السلطة لصالحها أيضا؟**

يقول بعض الباحثين: " لقد وعى المعتزلة ما حدث للقدرية في عهد الدولة الأموية، وذلك لأن "القدرية الأوائل كانوا (سيئي الحظ)، فقد تعرضوا لنقمة الخلفاء الأمويين الذين تتبعوهم بالقتل، وتناولوهم بالاضطهاد، فلما قامت القدرية – المعتزلة–أدركوا ناحية الضعف هذه فيهم، وعلموا أن ليس لهم بقاء ما لم يجدوا قوة كبيرة تسندهم، وتشد أزرهم، فخطر لهم أن يستعينوا بالسلطة الحاكمة، ويستميلوها إلى جانبهم، لكي يظهروا آراءهم بلا خوف، ولا وجل، ويبلغوا أهدافهم"[2]

والملاحظ أن استمالة السلطة ليس في حد ذاته هدفا للمعتزلة، بل ذلك مطية لهم لبلوغ غاية أخرى يمكن أن نحددها كما يلي:

. أراد المعتزلة بذلك **نشر فكرهم وعقيدتهم**، لتعم الآفاق فتكون لهم حرية الدعوة لها بمنعة السلطان وبأمره، وقد كان هذا شغلهم الشاغل منذ تأسيس الفرقة وبدأت حركة الدعوة لمبادئهم منذ فجر المعت زلة. فقد ورد في المنية: «أ ن واصل بن عطاء قد أرسل

---

[1]. زهدي جار الله، المعتزلة، مرجع سابق، ص ص: 162.163.

*." فقد نهى عن الكلام وأمر بحبس المتكلمين، كذلك كان يقتل من يقول بخلق القرآن جهارا" =ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، مصدر سابق، ص 32.

[2]زهدي جار الله، المعتزلة، مرجع سابق، ص158.

دعاته إلى كافة البلدان، فبعث عبد الله بن الحارث إلى المغرب، وحفص بن سالم إلى خراصان، والقاسم إلى اليمن، والحسن بن ذكوان إلى الكوفة، وعثمان الطويل إلى أرمينية."[1]

بل يتبين لنا من بعض الكتابات أن المعتزلة ليصلوا إلى الهدف المرسوم، اتبعوا سياسة مداهنة السلطة. فمثلا يقول زهدي جار الله: «وبعدما كان المعتزلة يرفضون الحديث عن بني أمية أثناء ولايتهم لمقاليد الحكم أصبحوا في عهد الدولة العباسية ينتقدون قولهم بالجبر، وأنهم حكموا بمشيئة الله وقدره، وكان ذلك يرضي خلفاء الدولة العباسية."[2]

" ومن الغريب أن المعتزلة دعاة الحرية الإنسانية الذين يقولون بنفس كلام القدرية والجبرية– وتم ذبحهم على يد بني أمية– قد استطاعوا من خلال التحامهم بالسياسة أن يفرضوا عقائدهم بقوة البطش والإرهاب بحيث كان كثير..من الولاة والقضاة

وغيرهم يكفرون كل من لم يكن جهميّا موافقا لهم على نفي الصفات،مثل القول بخلق القرآن ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر.. فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها،وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب"[3]

"إن المعتزلة قد لبسوا ثوب الدولة فبدت الدولة دولتهم، وجعلوا من ثلاثة خلفاء كبار أدوات طيعة في أيديهم تنفذ سياستهم، وتفرض مذهبهم بقوة النطع والسيف. كذلك كانت **دولة المأمون والمعتصم والواثق**"[4]

نقول كنتيجة لما سبق : **أنه كما وظفت السلطة العباسية المعتزلة، فإن المعتزلة بدورهم وظفوا هذه السلطة لصالح مذهبهم، وتقاطع كل منهما في مسألة خلق القرآن.**

---

[1]. ابن المرتضى، المنية والأمل، مصدر سابق، ص25.

[2]. زهدي جار الله، المعتزلة، مرجع سابق، ص160.

[3]. أحمد بن حنبل،الرد على الجهمية، مصدر سابق، ص15.

[4]. فهمي جدعان، المحنة، مرجع سابق، ص 17.

إذا أردنا معرفة الجانب التطبيقي للكلام النظري السابق، فلا نجد مثالا أحسن من امتحان الفقهاء . الذين تُلتمس فيهم المعارضة لحكم بني أمية . في قضية خلق القرآن، أو كما تسميها المصادر التاريخية" **المحنة**"

" حين تولى المأمون الخلافة استطاع ابن أبى داود * بلباقته وغزارة علمه، وذلاقة لسانه أن يسيطر على المأمون حتى حمله على **نشر مقالة خلق القرآن** ، وامتحان الناس فيها "[1]،"لقد كان ابن أبي دؤاد **القاضي** مسؤولا عن المحنة ووضع أسسها، ولم يخش فعلها، وتبنى جمهور علماء المأمون المحيطين به مذهب القول بأن القرآن مخلوق. .. وهذا إصلاح عقائدي قام به المأمون." [2].

لقد استعمل ابن أبي دؤاد السلطة المخولة إليه من الخليفة، وهي سلطة القضاء لحمل الناس على القول بخلق القرآن وهذا توظيف سياسي من جانب المعتزلة.

أما من جانب السلطة فقد بدأ الخليفة باختبار **القضاة**، إن أهم عنصر في التوظيف هو جهاز القضاء، فلو استدرج المأمون القضاء إلى الاعتقاد بخلق القرآن وأذعن للمأمون، لأمكنه فيما بعد إصدار الأحكام القضائية لصالح التوظيف. وضد من يقولون بعدم خلق القرآن، ويكون هو في حل من هذه الأحكام.

ثم بعد توظيف القضاة جاء الدور على **المحدثين** الذين يوجهون الناس بدروسهم، فهناك رمزية (علماء السنة) تدعوا السلطة لاستخدامهم في هذا السياق، لما لهم من مكانة عند العامة، ومن جانب آخر استعمالهم في التشهير والدعاية للمقولة.

---

*. "الذي كان زمن الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق، وهو الذي ألبس المتوكل الطويلة وعممه وسلم عليه بإمارة المؤمنين ولقبه المتوكل"= ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، مصدر سابق، ج3، ص 341

[1]ـ زهدي جارالله، المعتزلة، مرجع سابق،ص 164.

[2]– Walter Patton, **Ahmed Ibn Hanbal and the mihna**, Librairie et imprimerie, e.j.brill, leide, 1897.pp.52-54

وقد استعملت السلطة في ذلك أسلوب التهديد والوعيد، ضد من لم يقل بمعتقد الخلق من القضاة والمحدثين، وهذا واضح من خلال إسناد مهمة امتحانهم إلى رئيس الشرطة حيث تروي كتب التاريخ:" أن المأمون طلب من رئيس شرطة بغداد أن يجمع القضاة، والشهود والمحدثين بالقرآن فمن أقر أنه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى أعلمه به ليأمره فيه برأيه، وطول كتابه * بإقامة الدليل على خلق القرآن وترك الاستعانة بمن امتنع عن القول بذلك."[1]

نرى جملة ملاحظات يمكن ايرادها في سياق كتاب المأمون إلى عامله ببغداد منها:

. أن المأمون ينصب نفسه وصيا على الدين، بل على تدين الناس أيضا، وأنه مجتهد في إقامته.

---

*ونسخة كتاب المأمون إلى نائبه طويلة قد أوردها الطبري، منها قوله":أَمَّا بَعْدُ؛ فإنَّ حقَّ الله على أئمة المسلمين وخلفائهم **الاجتهاد في إقامة دين** الله الذي استحفظهم عليه .. وقد عَرَفَ أميرُ المؤمنين أنَّ السواد الأعظم من حشو الرعيَّة وسَفِلة العامَّة ..أهلُ جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به.. وذلك أنهم ساوَوْا بين الله وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، .. على أنه قديم أوَّل لم يخلقه الله ويُحدثه ويخترعه ..ثُمَّ هم الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقَّ، فدعوا إلى قولهم .. فرأى أمير المؤمنين أنَّ أولئك شرُّ الأُمَّة، ورؤوس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حظًّا، والمبخوسون من الإيمان نصيبًا، وأوعيةُ الجهالة، وأعلامُ الكذب، ولسانُ إبليس الناطق في أوليائه .فاجمع مَن بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، **وابدأ بامتحانهم فيما يقولون** ، واكشفهم عمَّا يعتقدون في خلق الله وإحداثه، وأَعْلِمْهُمْ أنَّ أميرَ المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلَّده الله، واستحفظه من أمور رعيَّته بمن **لا يُوثَقُ بِدِينِهِ، وخُلُوصِ توحيده ويَقِينِهِ** ."= الطبري، تاريخ الملوك،ج 8، مصدر سابق، ص: 631.

[1]. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، مصدر سابق، ص 03.أيضا:ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، مصدر سابق، ص207.

. إن الرعية على حدّ قول المأمون أهل جهالة لا دراية لهم بالدين، ولا علم لهم بالعقيدة، خاصة قواعد التوحيد والإيمان، ونتيجة لذلك قالوا بأن القرآن كلام الله غير مخلوق فقد ساوو ا بينه وبين الله في القدم، وهذا هو الشرك والعمى والجهالة.

. إن حجة المأمون في امتحان أهل العلم هو كشف من لم يكتمل إيمانه منهم، وبالتالي عدم الوثوق بعلمه ولا بقوله.

. إن المأمون بامتحانه للناس وكشفه عن محتوى عقائدهم، وزيف علمهم، يتعبد الله تعالى، يقول ابن العماد" **وقام المأمون في هذه البدعة قيام متعبد بها،**"[1]

حتى تكتمل المعادلة السياسية لهذا التوظيف، كان لابد من **فتوى فقهية** ، تسند حكم القاضي، وتوجد لها نصا في السنة، فبعد القضاة والمحدثين سيحين الدور في الامتحان على **الفقهاء.**

ولابد لنا من الإشارة هنا ولو قليلا إلى الصراع الذي كان دائرا بين المعتزلة من جانب، والمحدثين والفقهاء من جانب آخر. «إن الصراع بين المعتزلة والفقهاء كان في جوهره صراع بين من يمتلك سلطة العلم والفقه –الفقهاء– ويدير ش ؤون العوام، ومن يوظف السلطة السياسية –المعتزلة–لنشر آرائهم الفكرية بقوة هذه السلطة، في حين قامت السلطة السياسية –من جانب آخر– بتوظيف المعتزلة حتى تحاصر سلطة الفقه على العوام "فكانت دعوى الفقهاء والمحدثين أنهم أصحاب السلطة الشرعية، وورثة السلف الصالح، ويتسلل العلم إليهم مباشرة ابتداءً من الرسول وعبر الصحابة والتابعين"[2]

---

[1]. ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، مصدر سابق، ص81.

[2]. على أو مليل، **السلطة الثقافية والسلطة السياسية**، بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية، 1999م،(د، ط)، ص41.

ولكن الطريقة التي سيستخدمها المأمون هي ضرب الفقهاء بالمحدثين، أو وضع الفقهاء في مواجهة مع المحدثين، أو صناعة صراع بينهم، ذلك أنه عين رؤوس المحدثين من بغداد ليمتحنهم دون الفقهاء، وقد أقروا بخلق القرآن بين يديه، منهم محمد بن سعد الواقدي ويحي بن معين *."فدعا إسحاق بن إبراهيم الفقهاء إلى ذلك عن أمر المأمون وذكر لهم موافقة أولئك المحدثين على ذلك، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم، ووقعت بين الناس فتنة عظيمة"[1]

وإلى جانب الصراع كما قلنا بين المعتزلة والفقهاء، الذي وظفته السلطة السياسية هي تريد استصدار فتوى شرعية توجب القول بخلق القرآن، كما تكفر من لم يقل بذلك. فيكون لها مستند المعتزلة عقيدة، ومستند الفقهاء شريعة.

" ثم كتب المأمون كتابا ثانيا * إلى إسحاق بن إبراهيم يستدل به على القول بخلق القرآن بشبه من الدلائل لا تحقيق تحتها ولا حاصل لها بل هي من المتشابهات وأورد من القرآن

---

*. فلما ورد كتاب المأمون بغداد قرئ على الناس وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه: محمد بن سعد الواقدي،وأبو مسلم المستملي، ويحي ابن معين..وغيرهم بعث بهم إلى المأمون إلى الرقة فامتحنهم بالقول إلى خلق القرآن فأجابوه إلى ذلك وأظهروا الموافقة وهم كارهون،فردهم إلى بغداد وأمر بإشهار أمرهم بين الفقهاء، ففعل إسحاق ابن إبراهيم ذلك وأحضر خلقا من مشايخ الحديث والفقهاء والقضاة وأئمة المساجد وغيرهم"=ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، مصدر سابق، ص ص:207.208.

1. المرجع نفسه،ص210/211.

*. الكتاب أورده الطبري كاملا، ومما جاء فيه:

" فإن من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه على عباده، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحملهم رعاية خلقه وإمضاء حكمه وسننه..أن يجهدوا لله أنفسهم، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم، ويدلوا عليه بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم.."= الطبري، تاريخ الملوك، ج 8، مصدر سابق ، ص ص:634 .635.

آيات هي حجة عليه لا له، وأمره أن يقرأه على الناس ويدعوهم إليه وإلى القول بخلق القرآن".[1]

ويعلن هذا الكتاب أن بني العباس هم أهل العلم والمعرفة والدين، الذين استحفظهم الله عليه، وجعلهم هداة للناس إلى أحكامه، والهدف واضح من خلال هذا الإعلان وهو أن لا سلطة دينية ولا زعامة إلا للخليفة (ظل الله في أرضه).

هناك حقيقة ينبغي ذكرها هي أنه ليس كل من قال بخلق القرآن من العلماء قاله قناعة، " فقد أجاب أكثر العلماء على سبيل الإكراه، وتوقف علماء." [2]، ولكن هناك من جاهر بأن القرآن غير مخلوق، وخاصة ممن تميل إليه العامة وتستأنس بفقهه وحديثه [**] ، وتثق في إيمانه، ومن هؤلاء أحمد بن حنبل الشيباني، الذي جمع الفقه والحديث وكان إمام زمانه، وربما هذا هو السر في إعادة بعث المأمون كتابه الثاني إلى عامله ببغداد.

لكن لماذا إذا ذكر امتحان الناس في القرآن، ذكر الإمام أحمد فقط؟ نقول ذلك لسببين:

أولهما: أن الإمام أحمد ثبت في هذه المحنة التي عصفت بالكثير من العلماء، رغم تعذيبه ومحاولات قتله. ويذكر في ذلك أن المأمون خصه بكتاب أرسله إلى عامله يقول فيه:" اقرأه عليه، فإن أقر بما فيه، وإلا اقطع رجليه ويديه، فقرأ عليه الكتاب فقال أحمد: القرآن كلام

---

[1]. الطبري، المصدر السابق، ص635.

[2]. ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، مصدر سابق، ص81.

[**]" فأحضر إسحاق جماعة من الأئمة:أحمد بن حنبل وقتيبة، وبشر بن الوليد..وغيرهم.فلما دخلوا على إسحاق قرأ عليهم كتاب المأمون.فلما فهموه.قال لبشر بن الوليد:ما تقول في القرآن؟قال هو كلام الله.قال:ليس عن هذا أسألك.بل أسألك هل هو مخلوق؟قال:ليس بخالق..فقال للكاتب: أكتب بما قال،ثم امتحنهم رجلا رجلا،فأكثرهم امتنع عن القول بخلق القرآن. حتى انتهت النوبة إلى الإمام أحمد ابن حنبل.فقال له:أتقول أن القرآن مخلوق؟فقال:القرآن كلام الله.لاأزيد على هذا.فقال:ماتقول في هذه الرقعة؟فقال:أقول:**{ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}** ..فكتب جوابات القوم رجلا رجلا وبعثها إلى المأمون."=ابن كثير، البداية النهاية، مصدر سابق ،ص ص:210.211.

الله، وكلام الله غير مخلوق، فأراد العامل إنفاذ أمر المأمون، فقام رجلان من أهل الدين والفضل دون أحمد، وقام معهما عالم من الناس فمنعوه."[1]

ثانيهما: أن المعتزلة كان لهم موقف شديد العداء منه، ذلك أنه كان يذم مذهبهم، ويدعوا الناس إلى مقاطعتهم. "وكان يفتي بكفر من قال بأن القرآن مخلوق. وكان له مذهب في ذم الكلام وأهله .. فقد كان يقول "لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة"[2]

هذا ما تم من امتحان القضاة وأهل الفقه وعلماء الحديث، وكان ذلك أيام المأمون.

غير أن المشروع لم تكتمل جوانبه، فقد مات المأمون دون إتمامه، ولكن جاء بعده المعتصم الذي زاد على المأمون أن عمم المقولة في الناس وأشاعها بين العامة، واختبرهم في ذلك، وابتلوا به بلاء شديدا، بل بلغ به الأمر أن يغرس معتقد خلق القرآن في قلوب النشء، حتى يخرج إلى هذه الدنيا جيل مسلم يلهج بعقيدة خلق القرآن.

يقول السيوطي: "..وبويع بالخلافة للمعتصم بعد المأمون،(رجب 218هـ)، فسلك ما كان المأمون عليه وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن، فكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقا من العلماء".[3]

" مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأي في هذه المسألة، وإنما كان ينفذ وصية أخيه المأمون*. وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأي،

---

[1]. التميمي، المحن، مصدر سابق، ص338.

[2]. ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، مصدر سابق، ص ص:207،210.

[3]. السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص.266.

* وفيها قوله :" **وخذ بسيرة أخيك في القرآن**" ذكرها كاملة ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، مصدر سابق، ص ص:6،7، أيضا: ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، مصدر سابق، ص ص:88،89.

فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه *، وأصبح كل عالم أو قاض هدفا لخطر الضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن"[1]

ثم سار الواثق من بعدهما سيرتهما، ولكن الواثق اتبع إلى جانب الترهيب أسلوب الترغيب، واستخدم ووظف المساجد في عهده للدعوة إلى المقولة، ذكر السيوطي:" أنه لما بويع بالخلافة للواثق (ربيع الأول 227هـ)، وفي سنة إحدى وثلاثين، ورد كتابه إلى أمير البصرة، يأمره أن يمتحن الأئمة والمؤذنين بخلق القرآن، وكان قد اتبع أباه في ذلك، ثم رجع في آخر أمره".[2]

وربما نفسر سبب رجوع الواثق في آخر حكمه عن القول بخلق القرآن إلى ثورة الساخطين من الذين نادوا في الناس بأن القرآن غير مخلوق، ودعوا من خلال ذلك إلى عزل الواثق، يقدمهم أحمد بن نصر الخزاعي **، يقول أحمد إبراهيم أحمد: "وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم في انتصاره للمعتزلة، وتشدد في فرض آرائه الدينية على الناس مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد. وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن، ودعوا إلى عزل الواثق".[3]

---

* وجيء إليه بالإمام أحمد وعلق فيما بين السماء والأرض، فقام إليه المعتصم فقال: ويحك يا أحمد، إني أسأل الله أن لا يبتليني بك، ما تقول في القرآن. قال: القرآن كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، فأمر به فضرب .. ثم عاود عليه السؤال مرارا وهو يقول كلام الله وكلام الله غير مخلوق" =التميمي، المحن، مصدر سابق، ص 341.

[1]. أحمد إبراهيم أحمد، تاريخ الإسلام السياسي، ج2، مرجع سابق، ص 133.

[2]. السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص.266.

** **أحمد بن نصر الخزاعي** : بن مالك بن الهيثم، ومالك أحد نقباء بني العباس وكان يغشاه أصحاب الحديث، قتله الواثق في شعبان سنة (231هـ). = ابن سعد، كتاب الطبقات، ج 9، مصدر سابق، ص231.

[3]. أحمد إبراهيم أحمد، تاريخ الإسلام السياسي، ج2، مرجع سابق، ص 133.

لكن هناك مسألة ينبغي أن تثار في الختام، وهي أنه لما كان الاعتزال أقرب مذهب إلى نفس المأمون، ذلك أنه كان مثقف ثقافة واسعة، وله شغف بالبحث الفلسفي والعلمي، ووجد بغيته في هذا المذهب فاتخذه مذهبا للدولة، لأنه يحرر العقل والتفكير، **فلماذا اعتمده المعتصم والواثق بعده، وليس فيهما من ميزات المأمون في اشتهائه للبحث العقلي وشغفه بالبحث العلمي؟**

إن الإجابة عن هذا السؤال تجمع لنا شتات الأفكار التي سبقت، فنقول:

. إن القضية ليست فقط مبنية على حب المأمون واشتهائه، إن وراء اتخاذ مذهب الاعتزال والقول خلق القرآن خاصة، عاملا آخر هو **إشغال الرأي العام عن القضية الأصل وهي تحويل الحكم من الشورى، إلى الملك المتوارث، فرغم أن الخلافة خرجت من يد الأمويين إلا أن العباسيين حذوْ حذوَ الأمويين في تولية العهد أبناءهم** ،" وأصبح الخليفة العباسي يحكم بتفويض في نظره من الله لا من الشعب، كما يتجلى ذلك من بدايات حكم بني العباس في قول المنصور:" **إنما أنا سلطان الله في أرضه**" [1]. ومن كتاب المأمون الثاني إلى عامله ببغداد.

. تحويل أنظار الخاصة والعامة عن مجون ولهو بعض الملوك العباسيين، وهذا شأن من يحكم بشغل الرأي العام واجتذابه عن قضاياه الأصلية والمصيرية، ولا يوجد شيء يثير ويجذب أكثر من إثارة مسألة في العقيدة، والأكثر إثارة إذا كانت مرتبطة بالذات الإلهية، فقد مر بنو أمية قبلهم بذات المسلك العقدي السياسي فقالوا بالجبر، وأشغلوا الناس بهذه القضية خاصة في بداية حكمهم، ليواروا بالخطاب السياسي المنمق الذي ظاهره الدفاع عن العقيدة، المصيبة الكبرى وهي اغتصابهم للحق المشروع (الخلافة) وتحويلها ملكا بعدما كانت شورى،

. إن إعادة قضية الجبر ليست في صالح بني العباس، بل الذي يخدمهم سياسيا هو الإتيان بالجديد والبراق الذي تسمعه الآذان وتلوكه الألسن، والجديد في ذلك الزمان

---

[1]. أحمد إبراهيم أحمد، المرجع السابق، ص206.

هو الفكر المعتزلي، واختيار الأنسب منه ليشغل الرأي. وليس أنسب لهم من القول بخلق القرآن، ولكن انقلب ذلك عليهم وحول الناس ضدهم.

. من جهة ثانية أراد المأمون، والمعتصم والواثق، بفعلهم هذا إحدا ث ثورة على الفقهاء والمحدثين المعارضين لبني العباس في سلطتهم. وفي نفس الوقت كسب التأييد من العامة، وتأليبهم ضد هؤلاء الفقهاء والمحدثين، من خلال تشويه صورتهم عندهم.

" لقد أقام العباسيون حقهم في الملك على أساس أنهم وارثوا بيت الرسول، وعملوا على الاحتفاظ بالخلافة في دولة تيوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين ليظهروا بذلك الفرق بين السلطتين في عهدهم وفي عهد الأمويين من قبلهم، وقد حرصوا على الاحتفاظ بهذا المظهر، لأن حقهم يقوم عليه، ولهذا لم يقبلوا أن يكونوا ملوكا فحسب، بل أرادوا أن ينظر إليهم على أنهم أمراء دينيون، وبأن حكومتهم حكومة دينية"[1]

لقد وظفت السلطة المعتزلة أحسن توظيف، واستعانوا بهم في ذلك، وأرخوا لهم الحبل حتى يروجوا للمقولة، كوسيلة إعلامية فاعلة، وأتبعوا ذلك بسياسة الترغيب والترهيب، والترويع والتحبيب.

" وأمر الواثق بامتحان أهل الثغور في القرآن، فقالوا بخلقه جميعا، إلا أربعة نفر، فأمر الواثق بضرب أعناقهم إن لم يقولوه، وأمر لجميع أهل الثغور بجوائز." [2]. بل نجده يوظف المقولة حتى في سياسته الخارجية مع الروم،"فمن قال القرآن مخلوق فودي به، ومن أبى ترك في أيدي الروم .. وأمر أن يعطوا جميع من قال: إن القرآن مخلوق، ممن فودي به دينارا"[3]

ويعطي الجوائز لمن نجح في الامتحان، هي دعوة عارية الغاية مفادها إحلال إيديولوجية الدولة مكان ما تنادي إليه المعارضة.

---

[1]. أحمد إبراهيم أحمد، المرجع السابق، ص206. 207.

[2]. الطبري، تاريخ الملوك، ج9، مصدر سابق، ص141.

[3]. المصدر نفسه، ص ص: 143.

. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الخلفاء كانوا يرون اجتماع العامة وتحلقهم حول الفقهاء والمحدثين قوة قد تحدث هزات تحت أقدامهم كما حدث لبني أمية، فقد كانت للفقهاء. شعبية . أقلقت السلطة، فأراد الخلفاء نزع هذه الهالة عنهم وتحويلها إليهم، وقد أخطأوا بفعلهم هذا فكان أولى لهم كسب هذه النخبة ليكسبوا بها الناس.

لقد رأى بنو العباس في سلفهم من بني أمية، أن تهاوي ملكهم وذهاب عهدهم كان سببه تعصبهم ورفعتهم عن العامة، خاصة الموالي منهم، لذلك ودوا لو أن العامة التفوا حولهم لاستقام ملكهم واستقر، ولكن امتحانهم للفقهاء والمحدثين وحتى للقضاة، وتنكيلهم بهم، زاد من اجتماع الناس حول الممتحنين . الناجحين في الامتحان . وانفضاضهم عن السلطة. ويستدل على ذلك بقصة ضرب الإمام أحمد، "فلما ضرب ابن حنبل حتى شق خصره، فصاح الناس والعامة، وخرج الجلادون فقالوا: مات أحمد، وخرج أبو إسحاق . يعني المعتصم . وابن أبي دؤاد في موكب عظيم، فحالت العامة بينه وبين الجسر، حتى خاف على نفسه، وأسمعوه ما يكدره، وقالوا له قتلتم أحمد، فقال لهم: هذا أحمد في الحياة."[1]

وإذا كان ذلك يعني تغير إيديولوجية الدولة، فإن إيديولوجية المعتزلة اعتراها التغير أيضا.

ومن ذلك أنهم رفعوا راية حرية الفكر والتعبير، وحرية أفعال العباد سابقا، –قد مارسوا نفس دور سلطة الفقه في عهد الدولة الأموية مع الجبرية والقدرية– فحاولوا أن يفرضوا عقيدة خلق القرآن، بقوة سيف السلطة، وكأنه رد الإساءة بمثلها، بل يراه القاسمي إرهابا يغذيه الانتقام*، حيث يقول: إ ن الإرهاب الذي تم على يد المعتزلة هو "انتقام لاضطهاد سابق،

---

[1]. التميمي، المحن، مصدر سابق، ص 341.

*" لما امتحن الواثق أحمد بن نصر الخزاعي . وكان من أهل الحديث، قائما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال له: ليس بمخلوق، فقال الواثق تكذب، فقال: بل تكذب أنت، ثم سأل جماعة من فقهاء المعتزلة، ما تقولون فيه؟ فقالوا: هو حلال الضرب، فضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد، وكتب ورقة علقت في أذنه كتب فيها: هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك، دعاه عبد الله الإمام هارون إلى القول

ومقابلة له بالمثل، إذ كان للأثرية –السلف– دولة في عهد بن ي أمية، وكانت أقوالهم في تكفير مخالفيهم من الجهمية، ورميهم بالزندقة وهدر دمهم تغري بهم، ولم يكن قطع الجعد بن درهم، وغيلان الدمشقي... وغيرهم إلا جراء مقالاتهم فيهم"[1]

ولاشك أن التحام المعتزلة بالسلطة السياسية، وممارستهم الاستبداد في فرض آرائهم، ومحاولة البطش بالمخالفين لهم في الرأي، كانت من الأسباب الكبرى في انهيار مذهبهم، فحين تخلت السلطة السياسية العباسية عنهم تحت ضغط العوام عليهم، وكراهية الناس لما فعلوه."[2]

لقد غاب عن المعتزلة شيء مهم في المعادلة السياسية، وهم العوام، لقد ظن المعتزلة أن السلطة العباسية إنما تتقوى بهم، ولكن السلطة العباسية سرعان ما ستتخلى عنهم، لأن هدفهم كما قلنا هو سحب بساط الزعامة الدينية من تحت الفقهاء، وحيازة السلطة الدينية، وبذلك جلب العوام ورضاهم ليدوم لهم كرسي الحكم. " فلما بويع بالخلافة للمتوكل(ذي الحجة 232هـ) أظهر الميل إلى السنة، ونصر أهلها، ورفع المحنة ، وكتب بذلك إلى الآفاق، واستقدم المحدثين إلى سمرا، وأجزل عطاياهم وأكرمهم، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية"[3].

ليت المعتزلة أخذوا الدرس من تاريخ بني أمية فما أطاح بهم إلا العوام الذين نقموا عليهم، لقد علمت السلطة نقمة العوام على المعتزلة من خلال الظلم الذي مارسوه، لذلك ستلقي بهم خارج أحضانها، ليفعل فيهم العوام فعلهم.

=بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فعجله الله إلى ناره"= السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص.266.

[1]. القاسمي، تاريخ الجهمية، مصدر سابق، ص 69.

[2]. زهدي جار الله، المعتزلة، مرجع سابق،ص ص217، 218

[3]. السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص 274.

" فقد تم حرق معظم تراثهم على أيدي العوام، وأتباع أحمد بن حنبل –الحنابلة– وقد اتجه المعتزلة بعد ذلك إلى الاحتماء بالدولة البويهية "فلم يصل المعتزلة من القوة في القرن الرابع إلا في وزارة الصاحب ابن عبّاد (326 – 385 هـ) وعمل الصاحب بن عباد على نشر الاعتزال، وحمل الناس على انتحاله متبعاً في ذلك شتى الطرق، ومختلف الوسائل، ولذلك كان الصاحب بن العباد قوة عظيمة للمعتزلة أعاد لهم شيئاً من مجدهم وهيبتهم، ولذلك كان فقده كارثة كبيرة نصبت على رؤوسهم، وخسارة عظيمة ضعضعتهم، لأن الملك سحب ثقته من أصحابه"[1]

وخلف كل هذه الاتجاهات الفكرية والفقهية تشكل السلطة السياسية اليد الطويلة في تحريك هؤلاء ضد أولئك، وأولئك ضد هؤلاء، وذلك من أجل استمرار مصالحها واستقرار النظام الحاكم، ويعكس هذا أولوية السياسي على الديني والثقافي في الثقافة العربية الإسلامية، وأن ثمة سعي لدى السياسي دائما لتوظيف الديني لمصالحه.

[1]. زهدي جار الله، المعتزلة، مرجع سابق،ص ص217، 218

خاتمة

إن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان ولا يكمل إيمان مسلم إلا به.هذا ما حمل الجيل المسلم الأول إلى السؤال عنه،والبحث فيه عن إجابات تكفي العقل وتشفي النفس،وقد كان يومها المعلم الأول عليه الصلاة والسلام يكفيهم الإجابة في ذلك، ويوضح لهم ما أشكل،ويرد عن عقولهم الأوهام، وقد أصدر تعاليم صريحة في عدم الخوض في القدر وإكثار السؤال حوله.

ومثل القرآن بطبيعة نصوصه كما رأينا التي يفهم من ظاهرها الجبر في بعضها، والاختيار في بعضها الآخر، منصة الانطلاق لهؤلاء السائلين،ومرجعا للخائضين.

ولا يخفى أن هناك عوامل خارجية أسهمت بتضافرها جميعا في ميلاد المقولة. ففي المدينة كان الإسلام لا يزال فتيا،وديانة اليهود على مرمى حجر منه،ولا يستبعد دس اليهود بعضا من الشكوك في عقيدة المسلمين،وتعاليم دينهم.

فلما اتسعت رقعته وترامت حدود أرضه، وضمت إليها روافد الثقافات والفلسفات والديانات الأخرى،وتشربت عقول رواد الفكر الأوائل منها،فلا غرو أن يتأثروا بما تحمله هذه الروافد من أفكار ومعتقدات. وليس من المحال أن يتحول سؤال الأمس حول الأقدار إلى سجال فكري بين المتكلمين، وعراك عقلي بين الفرق الكلامية،جر إلى حلبته العامة من الناس،وساقهم إليها سوقا.

والناس على دين ملوكهم،والملوك والساسة لهم الدور الأكبر والحظ الأوفر في نصب راية الأفكار والمذاهب وإعلانها وإذاعتها على رؤوس الأشهاد،وإلا إزهاقها ووأدها أثناء الميلاد،وذلك بما لهم من قوة ترهب عدو ملكهم ومناقض أفكارهم.

وبالطبع كان تحويل نظام الحكم من الشورى إلى الملك دافعا لدى بني أمية لإيجاد المسوغ والمبرر لفعلهم هذا. فعمدت إلى توظيف الجبر انطلاقا من أن الله تعالى قدر لهم حكم الناس واختارهم ملوكا يسوسونهم، بل ويبررون بالقدر الذي لا مفر منه جرائم حكامهم وولاتهم على حد سواء.

إن التوظيف الذي استعملته سلطة بني أمية ليس ضد عقيدة الحرية المعاكسة للجبر، ولكن ضد الحرية الإنسانية عموما، حرية اختيار الحاكم (الشورى) فأصبح النظام السياسي ملكا متوارثا، وحرية الفكر وحرية الرأي فلا رأي يعلوا على رأي السلطان.

إن توظيفـللجبر يعني تكميم الأفواه وإسكاتها وإن أدى ذلك إلى قتل أصحاب الرأي المخالف.

واستعملت السلطة الأموية الفقهاء ضد القدرية والجهمية وجملة القائلين بالاختيار فرادى كانوا أم فرق، وكان معلوما لدى السلطة الحاكمة ما للفقهاء من تأثير على العامة، فهي تريد من جانب دحض رأي المخالفين بفتوى الفقه، وكسب ود الجماهير من خلال إضفاء الشرعية على فعلها بالمخالفين.

لذلك كانت مناداتهم بعقيدة الجبر علنا، وتنكيلهم بأصحاب الاختيار علانية أيضا، حتى أعطوا لأنفسهم حق ذبح المخالفين . باسم الدين . يوم عيد النحر في أصل المنابر التي تعلن من فوقها أصول الشريعة الإسلامية السمحة التي تقوم في الأساس على الحرية الإنسانية، وليست منصة إعدام تزهق فيها أرواح المخالفين في الرأي والفكر، وما فعله "خالد بن عبد الله القسري" والي الكوفة "بالجعد بن درهم" . وهو من رؤوس القدرية. إلا دليل كاف على ذلك.

لقد استغلت المنابر منذ إشراق الخلافة الأموية المغتصبة لحريات الاختيار لإعلان إيديولوجية الجبر دعوة وإرهابا، دعوة للجماهير لتنقاد، وإرهابا للمخالفين ليصمتوا.

من جانب آخر لم تكن مقولة خلق القرآن وليدة بيئة إسلامية خالصة وإنما هي سليلة انصهار مجموع عقائد يهودية ونصرانية ومانوية وأفكار فلسفية، تلقفتها عقول بعض المتكلمين ومنهم المعتزلة ووافقت عندهم نفي الصفات فقالوا بها. حتى أصبحت هذه المقولة تربط بهم، ولم تجد هذه المقولة صدى حتى مجيء الخليفة المأمون الذي ربي في حجر الاعتزال، وغذي من لبانه وهو حدث السن.

إن النفوس يستهويها عادة الجديد، لقد بلي ثوب إيديولوجية الجبر الذي ارتدته السلطة الأموية، خاصة بعد خلعه منها واستئصالها من الوجود، وعافته النفوس وثارت ضده، وتبين للعباسيين أن لا يعيدوا تجربة بني أمية لذلك لم يهتموا بمقولة الجبر، بل كرسوا كل جهدهم

في تحصين ملكهم وسلطتهم بمقولة أخرى تجعل الدين حاضرا أيضا في السياسة.واتفق رأي المعتزلة في الصفات مع هوى السلطة الإيديولوجي، فامتطت السياسة هذه المرة عقيدة "خلق القرآن".

لقد كان التوظيف السياسي لمقولة خلق القرآن ذا اتجاهين متوازيين:

الاتجاه الأول:التي أرادت بهذا التوظيف أن تجمع بين سلطة السياسة وسلطة الفقه، وأن تمسك زمام ذلك بيد واحدة لا غير، ولا ينافسها في ذلك الفقهاء. الذين كان لهم التأثير في الرأي العام وجماهير الناس. لذلك عملوا على امتحانهم فيها، وقمع كل من يجرأ على مخالفة القول بخلق القرآن. وكان من أولئك الإمام "أحمد ابن حنبل".

الاتجاه الثاني: هو منحى المعتزلة الذين وظفـو المقولة لنشر مذهبهم وقمع مخالفيهم من أهل الفقه والحديث، لذلك لم يعرف الاعتزال انتشارا وقوة كما عرفه أيام العباسيين،لقد كان المعتزلة زمن الأمويين . وبفعل السياسة . مضطهدين، فصاروا بها زمن المأمون يتحكمون في شؤون الحكم، ويضربون بسيف "المعتصم" و"الواثق" رؤوس مخالفيهم.

لقد حملت المعتزلة لواء الانتقام من مخالفيها، واستعملت السيف لترويج مذهبها.

هذا يحيلنا إلى جانب آخر للمعتزلة غير الجانب الديني، إنه الجانب السياسي وحده، أين تختبئ مطامح هذه الفرقة واستراتيجيتها السياسية، نحن لا نخص هنا بالذكر علما من أعلامها، ولكن نتكلم عنها كسمة غالبة عليها من خلال النصوص التي استقرأناها.

إن السلطة تحول أيديولوجيتها من زمن إلى زمن حتى وإن تبدل الأشخاص، وتتلون حسب مقتضى الحال والظرف. وذلك هو التوظيف، سلطة تصفح لأسباب سياسية، وبذات الأسباب تقتل.

لقد رأى العباسيون الخطر على ملكهم في الفقهاء كما رأى الأمويون الخطر على ملكهم في القدرية الأوائل والمعتزلة. فاستعمل كل منهما المخالف لفكر الثاني وأدناه وقربه، فقرب الأمويون الفقهاء، وقرب العباسيون المعتزلة، وخلف ذلك كله تقف السلطة بيدها الطويلة تحرك هذا ضد ذاك، وذاك ضد هذا لا لشيء إلا لبقاء كيانها ومصالحها.

خاتمة

وكنتيجة أخيرة نقول:

إن توظيف الدين في الأطماع الدنية هو تقزيم له. مطلوب ممن يسوس الناس ألا يقحم الدين في سياسته. إلا من جانب ورعه من الله وخشيته منه وتقواه في حكمه، تبقى السياسة اجتهاد بشري لا يرقى إلى تعاليم الدين السماوية.

وحتى تسلم دنيا الحاكم والمحكوم، وجب أن يبقى الدين في عليائه ولا يدنس في دهاليز السلطة، وتبقى السياسة نظاما يرعى شؤون الناس في أمور دنياهم.

ذلك لأن فكرة توظيف الدين لصالح السياسة لم تذهب مع الأمويين، والعباسيين، ولم تبد مع المعتزلة، ولكن هي جارية إلى اليوم.

وهذه مشكلة كبرى تقتضي من المفكرين العودة مجددا إلى تقليب صفحات التراث، لا لنقلده، ولكن لربطه بحاضرنا وإسقاطه على واقعنا، ومزواجة هذا بذاك، عساه يكون ميلاد حل لجدلية الدين والسياسة التي قامت في التاريخ ولا تزال.

. المصحف الشريف.

. العسقلاني،أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ، دمشق، مكتبة دار الفيحاء، ط1: 1418هـ . 1997م.

- المصادر:

1. ابن الأثير، أبو الحسن علي ابن أبي الكرم محمد ابن محمد ابن عبد الكريم، **الكامل في التاريخ**،إعداد إبراهيم شمس الدين، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية،ط4: 1424هـ2003م.

2. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي البغدادي، **تلبيس إبليس** ، الإسكندرية، دار ابن خلدون،(د،ط) (د،ت).

3. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الرياض، دار هجر، ط2،(د،ت).

4. ابن حزم الظاهري ،أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**،تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، بيروت، دار الجيل،ط 2: 1416هـ1996م.

5. ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، **الرد على الجهمية والزنادقة** ، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، الرياض، دار الثبات،ط1: 1424هـ2003م.

6. ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ، مراجعة سهيل زكار، لبنان، بيروت، دار الفكر، ،1421هـ2000م،(د،ط).

7. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط1،(د،ت).

8. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري، **كتاب الطبقات الكبير** ، تحقيق علي محمد عمر، مصر،الشركة الدولية للطباعة، ط1: 1421هـ2001م.

9. ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، دمشق ، دار ابن كثير،ط1: 1406هـ . 1986م.

10. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة** ، صححه محمد محمود الرافعي، مصر، مطبعة النيل،1322هـ1904م، (د،ط).

11. ابن كثير،عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**،تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مصر، الجيزة، دار هجر، ، ط1 ،1420هـ . 1999م.

12. ابن المرتضى، أحمد بن يحي المرتضى، **المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل** ، تصحيح توما أرنلد، حيدر آباد، دائرة المعارف الشامية،(د،ط)، 1316هـ.

13. ابن منظور،محمد بن مكرم ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر** ،تحقيق مأمون الصاغرجي، دمشق، دار الفكر، ، ط1: 1406هـ1986م.

14. الإسفرايني،أبو المظفر الإسفرايني، **التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين**، تحقيق كمال يوسف الحوت،بيروت،عالم الكتب، ط1 : 1403هـ1983م.

15. الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، **الإبانة عن أصول الديانة** ، لبنانبيروت، دار بن زيدون،ط1: (د،ت)،

16. الأشعري،أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين،** تحقيق محيى الدين عبد الحميد، بيروت، صيدا ،المكتبة العصرية،1411ه/1990م،(د،ط).

17. البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر محمد البغدادي ،**الفرق بين الفرق،** تحقيق محمد عثمان الخشت ، مصر الجديدة ،مكتبة ابن سينا ،.(د،ط)،(د،ت).

18. التميمى، محمد بن أحمد التميمى ، **المحن،** تحقيق وهيب الجبورى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط3 :1427ه2006م.

19. الحسن البصري وآخرون، **رسائل العدل والتوحيد** ، تحقيق، د. محمد عمارة، مصر، القاهرة، دار الشروق ، ط 2: 1408ه1988م.

20. الدارمي، عثمان بن سعيد الدارمي ، **الرد على الجهمية** ، قدم له وخرج أحاديثه بدر البدر. الكويت، الدار السلفية، ط1: 1405ه 1985م.

21. الذهبي،شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، **سير أعلام النبلاء**،رتبه وعني به حسان عبد المنان، لبنان، بيت الأفكار الدولية،(د.ط)،2004م.

22. الرازي، فخر الدين الرازي، **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** ، مراجعة علي سامي النشار، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1306ه1938م، (د،ط).

23. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، **تاريخ الخلفاء** ، لبنان، بيروت ، دار ابن حزم،ط1: 1424هـ 2003م.

24. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، صححه أحمد فهمي محمد، لبنان، بيروت،دار الكتب العلمية، ، ط2: 1413هـ 1992م.

25. طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، لبنان، بيروت ، دار الكتب العلمية، ط1: 1405هـ1985م.

26. الطبري،أبوجعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، ط2،(د،ت) .

27. القاسمي ، جمال الدين القاسمي، **تاريخ الجهمية والمعتزلة**، بيروت، مؤسسة الرسالة ، ط1: 1399هـ1979م.

28. القاضي عبد الجبار، أبي الحسن عماد الدين عبد الجبار بن أحمد، **طبقات المعتزلة**، تحقيق فؤاد سيد،تونس، الدر التونسية للنشر،ط2: 1986.

29. القاضي عبد الجبار ، أبي الحسن عماد الدين عبد الجبار بن أحمد ، **المغني في أبواب التوحيد والعدل خلق القرآن .** ، تقويم إبراهيم الأبياري إشراف د.طه حسين ، القاهرة: 1961.(د،ط).

- المراجع :

1. أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ،2012م،(د،ط).

2. أحمد أمين، **فجر الإسلام** ، القاهرة،مدينة نصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط2012:2م.

3. إجناس غولد تسيهير، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين، مصر، دار الكتاب العربي ، ط2،(د،ت).

4. البهي، محمد البهي، **الجانب الإلهي من التفكير الإنساني** ،الطبعة الرابعة. موقع : http:/www.4shared.com/file/Qo_Bun5v/___.html

5. الجابري، محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي** ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1: مارس 2001م،

6. الجابري، محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي** ، لبنان، بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية، ط4: أغسطس 2000م.

7. حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ، بيروت، دار الجيل، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 14: 1416هـ1996م.

8. حسين مروة، **النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية** ، بيروت، دار الفارابي، (د،ط)، 1979م.

9. زهدي جار الله،**المعتزلة**، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1: 1974م.

10. عبد المجيد الصغير،**الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام**، بيروت، دار المنتخب العربي، ط1: 1415هـ1994م.

11. على أومليل ، **السلطة الثقافية والسلطة السياسية** ، بيروت ،مركز دراسات الوحدة العربية، 1999م.(د،ط).

12. محمد العبده و طارق عبد الحليم، **المعتزلة بين القديم والحديث**، برمنجهام، دار الأرقم، ط1: 1408هـ1987م.

13. محمد عمارة، المعتزلة والثورة، مصر، دار الهلال، (د،ط ،ت).

14. محمد عمارة، **المعتزلة ومشكلة الحرية السياسية** ، القاهرة، دار الشروق،ط 2: 1408هـ1988م.

15. النشار،علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام** ،ج1، ج2، القاهرة ، دار المعارف.(د ،ت).

القواميس والمعاجم:

1. ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1: 1997.

2. الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، **معجم التعريفات** ، تحقيق، محمد صديق المنشاوي، مصر،القاهرة ، دار الفضيلة،(د،ط)،(د،ت).

3. **المعجم الفلسفي** ، مجمع اللغة العربية، مصر، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،:1403هـ1983م،(د،ط).

- المجلات والدوريات والمواقع :

1. أحمد محمد سالم، **قضية الجبر والحرية الإنسانية في علم الكلام** ،موقع الحوار اليوم: http://www.alhiwartoday.net/node/1383.نشر بتاريخ: 2011/08/08م، الساعة: 10:20

- المراجع باللغة الأجنبية:

1- D.s. Margoliouth, Mohammed and the Rise of Islam, New York and London. the knickersbooker press , third edition:2003.

2-Walter Patton,**Ahmed Ibn Hanbal and the mihna**,Librairie et imprimerie,e.j.brill,leide,1897.

فهرس الأعلام والشخصيات

أحمد بن أبي دؤاد..... 57
أحمد بن نصر الخزاعي..... 104
الأوزاعي..... 36
بشر المريسي..... 58
الجعد بن درهم..... 41
الجهم بن صفوان..... 46
الحسن البصري..... 40
الخليفة الأمين..... 65
الخليفة عبد الملك بن مروان..... 77
الخليفة عمر بن عبد العزيز..... 44
الخليفة معاوية الثاني..... 81
الخليفة المأمون..... 64
الخليفة هشام بن عبد الملك..... 81
الخليفة يزيد بن معاوية..... 73
سعيد بن جبير..... 89
عمرو بن عبيد..... 40
غيلان الدمشقي..... 39
محمد بن الحنفية..... 43
معبد الجهني..... 39
واصل بن عطاء..... 40
يزيد بن هارون..... 65

فهرس الموضوعات

مقدمة..... 01

مدخل..... 06

الفصل الأول: نشأة المقولات الكلامية..... 25

المبحث الأول: نشأة مقولتي الجبر والاختيار..... 28

المبحث الثاني: نشأة مقولة خلق القرآن..... 50

الفصل الثاني: التوظيف السياسي للمقولات الكلامية..... 68

المبحث الأول: التوظيف السياسي لمقولتي الجبر والاختيار..... 69

المبحث الثاني: التوظيف السياسي لمقولة خلق القرآن..... 93

خاتمة..... 110

قائمة المصادر والمراجع..... 114

فهرس الأعلام والشخصيات..... 121

فهرس الموضوعات..... 123

إهداء

إلى والدي الكريمين.

وإلى التي جعلها الله لي سكنا وأنسا دائمين. .زوجتي الغالية "مريم".

وإلى أبنائي أنس، بسمة و حسام .

أهدي هذا العمل.

شكر و تقدير

لله أولا و من لم يشكر الناس لم يشكره ، فهو موصول لمن مد يد العون من قريب أو بعيد في انجاز هذا البحث و نخص منهم عبد الحكيم و عز الدين .

كما نتقدم به خالصا للدكتور "حفيان محمد" الذي تحمل قسطا من عناء إنجازه، نصحا وتوجيها وتصحيحا و للأساتذة أعضاء لجنة المناقشة .